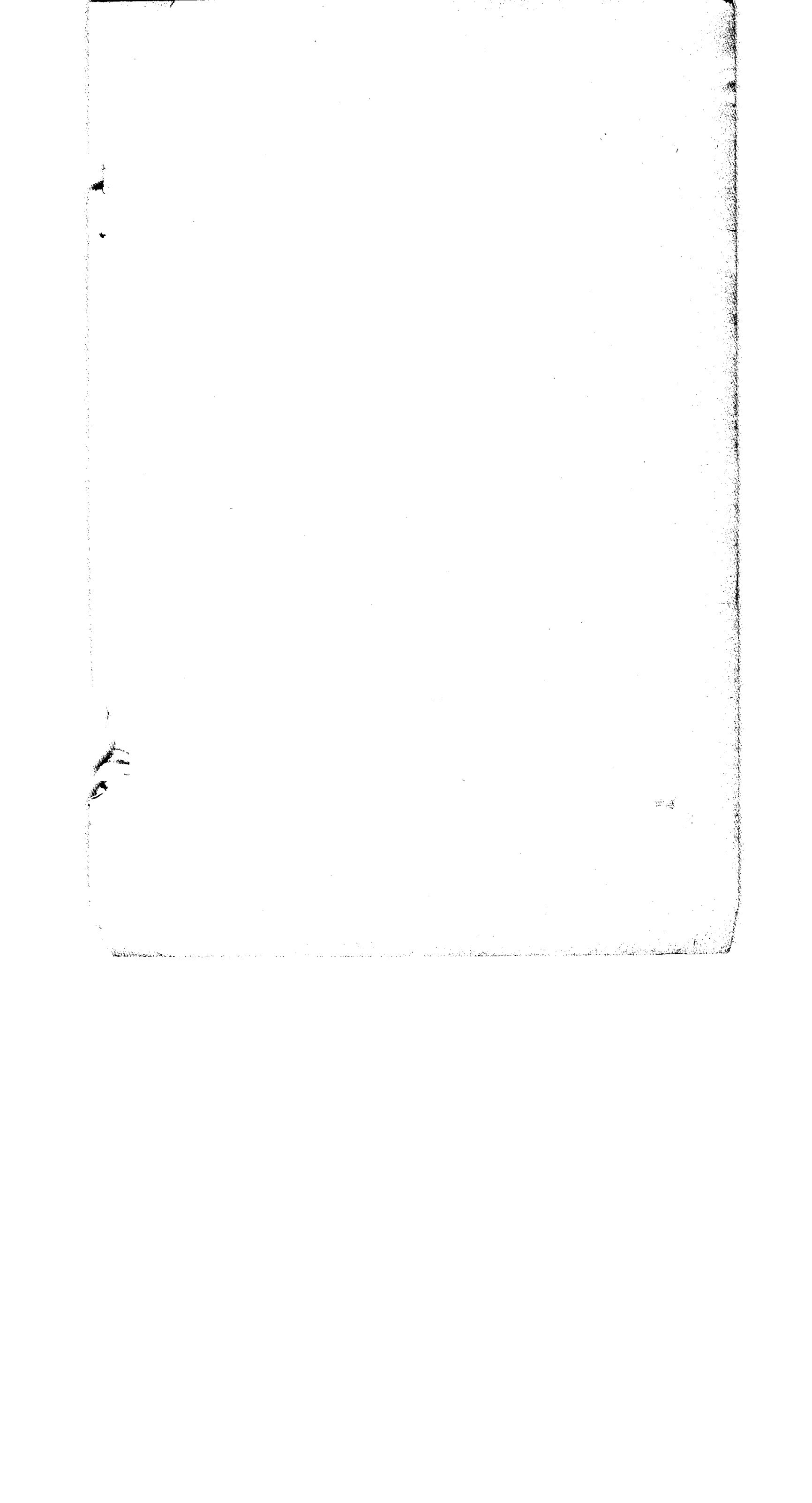
مطبوعات « الحيـــاة »

فتحي ســـلامة

الرحـــــــــلة

مجمـــوعة قصص

دار الفـــكر



(الرحـــلة)

القطار يندفع إلى القاهرة ، المقاعد الجلدية تبدو مشدودة ، الصور تزين حوائط المقصورة ، مرآة تعكس حقول القطن تجرى والأشجار ، والنافذة تبرق فى ضى الشمس ، وليس فى المقصورة إلا نحن الأربعة ، أمامى يجلس أبى ، بجواره جلس خالى أمامهما جلست أنا وعمى ، نبتسم ، نصمت ، يعود أبى إلى وصف ما لاقاه من عنت لكى يحصل منى هذا الأفندى الذى يحمل شهادة التوجيهية ، خالى هو الذى احتفظ بالأوراق معه فى مظروف أصفر ، قال عمى معلقاً :

— المهم أن يتذكر كل هذا عندما يصبح مديراً .

لا يهم أبى إلا أن يرانى موظفاً كبيراً يجلس إلى مكتب فخم فى حجرة على بابها يقف أحد السعاة ، وعندما يحضر ويحاول الدخول يمنعه الساعى ، ولكن ما إن يعرف أن هذا الرجل الريفى هو والد البيه المدير حتى يهب محييا فى وجل واحترام ويدخل الوالد شامخاً فى كبرياء . . هذا البيه الذى تحرصون على راحته وطاعته ما هو إلا . . ولدى !

ابتسم أبى وكف عن الكلام ، نظر خالى إلى ساعته ، وصاح :

— هيا نستعد للنزول .

ياه .. هذه هى محطة مصر ، مصر أم الدنيا ، زحمة ، أصوات الباعة وصفارات القطارات ، البلاط يلمع فى ضى لمبات الكهرباء ، شدنى عمى من يدى ، ودلف أبى من باب صغير ، انتظمنا خلفه ، عندما أصبحنا فى الفناء الخارجى ، . . شعرت بالغربة ، هذا هو عالمى الجديد ، كيف أعيش فيه ، زحام . . ياساتر ها هم باعة العرقسوس كما جاءوا فى الراديو ، وهذا هو الترام ، إنهم يهبطون منه وهو مسرع ، (. . صاح ابن عمى محذراً عندما ركب معى أول مرة وأنا فى زيارة لهم :

— لا تفعل مثلنا . . انتظر حتى تأتى المحطة) .

قبل أن يكمل كلامه كنت فى الشارع ، ابتسمت لأننى أقنعت ابن عمى أننى لست كما يظن ، . . نحن أبناء مدارس مثلهم ونفهم فى أمور الهرب من المحصل . ابتسمت متذكراً ونحن نركب الترام ، دفع أبى إلى المحصل جنيها ، قال الرجل فى حسم :

— أريد أربعة قروش فقط .

تذمر أبى ودس ورقة النقود فى محفظته ، كنت أسمع عن النشالين والنصابين وبائعى الورقات ، ولاعبى القمار وكل هؤلاء وأيضاً سمعت عن شراء الترام والعتبة وصفقة بيع فندق شبرد ، كل ما سمعته عن مصر يدور الآن فى ذهنى وخاصة قصص النشل والنصب . . وكنت أحيانا أبكى عندما أسمع تلك القصص . . دائما من يذهب إلى المدينة الكبيرة يعود إلى قريتنا ومعه قصة نشل أو نصب كان هو ضحيتها لولا فراسته وحسن تصرفه . . معظمهم دائما من النوع شديد الفراسة حتى أنه يعرف الحرامى من أول نظرة . . هكذا أهل قريتى يتباهون وهم يقصون ما حدث لهم فى المدينة الكبيرة !

نظرت إلى محفظة أبى المتضخمة وهو يدسها فى جيب الصديرى ، بدت واضحة تماما ، بارزة على جنبه الأيسر ، . . شعرت بالخوف من النشالين . . كان أبى يبتسم وقد اشتبك مع أحد الركاب فى حديث دار حول تفوق الدراسى واجتهادى وذكائى . . والراكب يستمع فى شغف . .

قدمنا الأوراق إلى المدير ، قال موعدكم أول الشهر ، لتوقيع الكشف الطبى . . سأله أبى كثيراً ، وألح عليه خالى بعد أن أشبعه عشرات الدعوات . . حتى عرف منه كل شىء وسأله عمى فى موضوعية . . الموعد باليوم والساعة . . الأوراق . . الرسوم ، صاح المدير فى غيظ :

— يا عالم .. إبنكم هذا ليس هو الوحيد من دون الخلق الذى سيلتحق بالكلية إنه مجرد واحد .. واحد من ضمن ..

غضب أبي وابتعد عنه يدخن ، تنهد خالي ناظراً إلى الرجل وقد عادت إلى ذهنه صورة الموظف الميرى وندم على أنه لم يكمل دراسته التي لو كان قد أكملها لأصبح الآن مثل ذلك المدير ، بل رئيساً له ، وما كان هذا المدير سيجرؤ على معاملة أهله على هذا النحو ، بل لم تكن هناك حاجة إلى مجيء أهله . . واكتفت الجامعة بقبول ابن اخته دون تقديم أوراق .. قال عمى :

ـــ هيا . . لقد أعطانى الرجل خطاب الكشف الطبي .

خرجنا من الجامعة فى صمت ، هذا المدير كاد يسرق بهجتنا التى جئنا بها من القرية . . ولكن عمى بدد هذا الخوف الصامت بتعليقاته المرحة . . عادت إلينا البهجة ثانية ونحن نجلس فى حديقة الأورمان وزجاجات المرطبات فى أيدينا ، راح أبي يروى نوادره ، وخالى يعلق عليها ، وعمى يحاول المشاكسة ، (وأنا أحلم بفتاة شقراء ذكية تشاركني الجوار فى الكلية ، نذاكر معاً ، نخرج معاً ، نضحك ونلعب وندور حول الأشجار ، هكذا رأيت فى السينما ، عندما يتحابان يجريان حول الأشجار تلهث البطلة ، تتوقف وقد وضعت يدها على صدرها ، البطل مندفعاً نحوها لا يدرى ما بها ، يقبلها فى عنف ، وبعدها يكتشف أنها .. ، يصرخ ، نراه وهو يكاد ينفلق من الخوف . . ، لا بد من طبيب ، . . لا فائدة يا محسن . . كيف ؟ . . حاولت أن أخبرك . . ، تتحامل على نفسها . . تعود لتجرى ولكن البطل لا يجرى ، تتوقف ، إنها مريضة بالقلب . . ، لا بد أن يضحى .. وأن يتزوج ابنة عمه الثرى لكى يمكنه أن يدفع للطبيب أجر العملية لحبيبته . . صاح عمى :

ـــ طبيب .

ـــ نعم .. ألا تذكرون هذا النزيف الذى يحدث له ؟

ـــ ولكن . .

وعدنا لنسير فى الشوارع ، لم يكن هناك ما يكدرنا ، جئنا إلى هنا لنقدم

الأوراق إلى الجامعة ، وها هم قد قبلوها وحددوا لنا موعداً للكشف الطبى . . مجرد إجراء عادى . . بعدها يكون ولدنا الهمام طالباً فى الجامعة . . ثم طبيباً بعد عدة من أعوام .

— ها هو الطبيب .

صاح أبى ، أشار إلى لافتة سوداء خطت باللون الأبيض ، قرأ عمى بصوت مرتفـــع .

أذن وأنف وحنجرة وعيون !

توقفنا ، ولكن أبى اندفع نحو مدخل العمارة . . هذا الطبيب سوف يجعلنا نطمئن تماماً . . هيا .

ودخلنا . . كانت الحجرات خالية ، باردة ، تطفح قدما ، جلسنا فى ترقب . . كل شىء متهالك ، المقاعد ، والمجلات الموضوعة ولافتة أسعار الكشف .. ودخل الطبيب . . مومياء ترتدى البالطو الأبيض ، ويضع على رأسه طاقية من الجلد . . جعلت وجهه يزداد قبحاً أشار بيده طالبا النقود . . أعطاه أبى جنيها وكان هذا هو أعلى أجر فى القائمة ، كشف خصوصى ، وضعنى الطبيب على المقعد . . ووضع على رأسه كشافا . . وراح يحشر فى أذنى ثم حلقى . . ثم يعيد الحشر فى أذنى . . وأنا أحاول التحمل . . وأهلى يرقبون . . ولكن الطبيب لا يريد أن ينتهى . . استخدم الكشاف . . ثم أنابيب تنتهى بأقماع ثم السماعات .. ثم منظار لولبى بارد الملمس .. وأخيرا تنهد .. ملامحه ساكنة باردة .. قال :

— هل مات جد هذا الغلام بمرض معروف ؟

اندفعت الدهشة تجيب بألسنة الجميع . . لا .

— هل يوجد فى أسرته من مات بمرض غريب ؟

تلكأت الألسنة خوفا .. وهى تقول .. لا

ـ هل فى أسرة هذا الغلام من هو مريض ؟

صمت الجميع وإحساس بالخوف يجثم على القلوب ، . اعتدل أبى وبدأ يدخن حاول خالى أن يستوعب الموقف ، قال عمى فى غيظ :

ـ ماذا فى ابن أخى . . قل ؟

عاد الطبيب إلى لخوصـــه . . تنفس . . أسعل . . أسعل بشدة . . قل . . عندما أضع . . لا تفعل إلا ما أقوله لك . . ، اندفع أبى إلى الطبيب . . أزاحه بعيداً عنى ، كان الطبيب قد التصق بالحائط بعد أن دفعه أبى ، قال أبى وهو يحاول أن يكون هادئاً :

ـ هذا ابنى البكر . . وأنا أبوه . . وهذا خاله . . وذاك عمه ، وكل أخواله مثل هذا الرجل وكل أعمامه مثل هذا الرجل . . ولم يمرض فى أسرتنا أحد . . ولا يوجد من مات مريضا ، وجده مات فقط منذ عامين بعد أن بلغ السبعين ودون أن يشكو مرضا فماذا ترى ؟

لم يتكلم الطبيب . . عاد خالى يكرر ما قاله أبى مضيفا مزيدا فى التفاصيل ، توسل إليه عمى أن يقول ماذا يرى فى ابن أخيه ، ما هو مرضه ، هل هو مريض إلى هذا الحد . . إنه من أبناء أسرة من الأصحاء ، لا نعلم ولا نعلم فى دائرة أسرتنا وبطونها وفروعها من مات بمـــرض غريبا . . أو سمعنا عن مريض فى الأسرة . . فما بال ابن أخى ؟

ولم يتكلم الطبيب . . توسلوا إليه أن يخبرهم . . إنه بكر أولهم . . إنه « الولد » الذى تعتز به أسرة بأكملها . . له العديد من الأعمام وأبناء العم والأخوال وأبناء الأخوال ، وليس له خالة ولا عمة . . إنه من صلب أسرة قوية لا يشكوا أفرادها المرض . . أخبرنا يا رجل بحق دينك . . ولا يتكلم الطبيب . . حكوا له كيف سعدوا عندما نجح . . الوحيد الذى نجح .. الوحيد الذى دخل الجامعة .. لماذا تريد أن تسلبنا البهجة أنت أيضاً . . بل لماذا تسقينا المر فى يوم كهذا .

ألا تعلم ما نعانيه . . نحن حصد الأرض ونباتها ، لا نريد منك إلا أن تخبرنا بما فى غلامنا من عيب . . أيها الملعون لماذا ساقنا القدر إليك فى يوم كهذا ؟ !

لم ينطق ، هجم عليه أبى وأقسم أن يسترد الجنيه ، رفض الطبيب بإصرار حاول خالى أن يثنى أبى ولكنه أصر على استرداد نقوده لأنه لم يحصل فى مقابلها على شىء ، حاول عمى أن يقلل من شأن الجنيه . . أنت تنفق على سجائرك أكثر منه ، أبداً ، أصر أبى على أن يحصل على الجنيه . . خاف الطبيب وأعاد النقود إلى أبى . . وأسرعنا نهبط السلالم ، كنا نشعر وكأن الشيطان يطاردنا . . عندما وقفنا وسط الناس فى انتظار الترام أحسسنا بالاطمئنان . . همس أبى وهو يرفع رأسه ناظراً إلى الخلف حيث كنا منذ برهة . .

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

فعلا . . لم يكن هذا طبيبا ، إنه . . ، لا يهم هيا لتأكل شيئا ، ضحك أبى وهو يتحدث عن مطاعم مصر . . لم يجاوبه أحد منا ، كان خالى على وشك البكاء أما عمى فقد وقف فى صمت وكأنه نائم ، جاء الترام واندفع إليه الناس وركبوا ، خلت محطة الترام ووقفنا وحدنا ، أعاد أبى اقتراحه بالذهاب إلى المطعم ، . لماذا ذهبنا إلى هذا الطبيب لقد صفعنا جميعا على وجوهنا ، لقد لطمنا فى عنف ، ياله من رجل شرير ، وربما لم يكن هناك طبيب ولا يحزنون ، ياه . . أشعر بالدوار ، جاء ترام آخر وركبنا ، جلسنا نهتز مع حركة الترام ، . . الكمسارى يضحك مع بائعة ورق اليانصيب . ثلاثة من الشبان يضحكون بصوت حاد ، سيدة مسنة تروى لجارتها فى حماس حكاية ، توقف الترام وبدأ يزدحم بالركاب ، كنا فى ذلك الزمن الذى كان فيه الزحام أمراً غير عادى ولا يتكرر كثيراً ، نظرت إلى أبى وشعرت بالحب يغمرنى وارتعش قلبى ، . . هل سأموت سريعا ، إن ما قاله الطبيب لا يعنى إلا هذا ، ولكن لم أحقق شيئا ، جاء رجل ضخم الجثة ووقف بجوار أبى ، أخذ يحملق فى أبى ثم قال :

ـــ من قويسنا ؟

نظرنا إليه فى غيظ ، هز عمى رأسه مجيبا ، عاد الرجل يقول :

ـــ أنت فلان ؟

لاحظت أن أهلى لم يغضبوا لهذا التدخل ، بل استراحت عضلات وجوههم المشدودة ، ابتسم أبى وهو يعتدل ، ثم قال :

ـــ ومن أنت ؟

قهقه الرجل ، وأخذ يتحدث بسرعة وحماس ، كان فرحا وهو يروى كل شىء لقد كان ضائعاً فى هذه المدينة الوحشية ، عادت إليه نفسه عندما رأى أبى وعرفه . أقسم أن يعزمنا على الغداء فى أحسن المحلات . . ها هو . . هيا يا حاج .. هيا يا رجل . . أهلا بالبيه . . دكتور بإذن الله . . ادخلوا . .

موائد كثيرة من الرخام ، الدكان كبيرا وواسعا ، رجال بملابس سوداء وبيضاء ، كانت المائدة عالية ، وجدت صعوبة فى أن أضع يداى على المائدة مثل عمى ، أبى يجلس بعيدا يستمع فى شرود إلى الرجل ..كادوا يسرقون منه زوجته ، قالوا له يجب أن تضعها فى مكان يسمونه مصـــحة . . رفضت وأقسمت . . حاولوا ، يا ساتر يسرقون زوجتى ، قسما . . ، طيب خالى باله وأفهمه أن هناك ما يسمى فعلا مصحة وليس كما ظن ، إنها ليست خدعة ، ولكن الرجل واصل الحديث عن ذكائه والطريقة التى فر بها من هؤلاء اللصوص . . كان يلتهم قطع اللحم المشوى فى شراهة ، . . عمى يأكل فى قرف ، خالى لا يأكل ولكنه يتظاهر ، أبى ظل صامتاً فى صمت وشرود . . سكت الرجل بعد أن أكل ما تبقى فى طبقة من أعواد خضراء ، تجشأ وصمت نظر ناحية أبى ، أحس أبى أنه جاء عليه الدور لكى يحكى . . حكى . . واصل حكايته التى بدأها منذ أن كنت طفلا يذهب إلى « الكتاب » . . بدأ أبى يأكل . . سرت بعض السعادة . . بدأ خالى يأكل .. لم أستطع تقطيع قطعة اللحم ، كانت تنزلق من بين يدى ، تركتها وحاولت

أكل قطع الطماطم ، انفجرت الطماطم فى فمى ، واندلق البذر على قميصى ، شعرت بالارتباك ، . . كان أبى قد وصل بالحكاية إلى الطبيب . . ارتعشت يدى وأنا أحاول أخذ قطعة من اللحم ، كنت جائعاً . . ومغيظا ، . . هز الرجل رأسه وقال :

— هيا بنا .

قالها فى إصرار يبدو أنه توصل إلى حل لكل همومنا ومشاكلنا ، وأيضا - مشاكل العالم - اندفع أمامنا ودفع الحساب ، أشار إلى تاكسى وركبنا أصبحنا خمسة أفراد .

— إلى أين ؟

— لا تقلقوا ، بعد لحظة ستعرفون .

لا أدرى لماذا اطمأن أهلى إلى هذا الرجل ، كيف نركب معه هكذا بسرعة خالى يعد من أذكى الرجال ، هكذا يقولون عنه ، فقد تعلم فى الأزهر ومارس التجارة ، وكان دائما يجد حلا لكل مشاكل من يلجأ إليه ، إنه رجل حكيم ، لماذا أصبح هكذا سهل القياد مع هذا الرجل ، ثم ما بال عمى ، الشاب المتعلم ، الذى قرأ الجرائد والمجلات ويتحدث فى السياسة وله ذكريات خاصة به مع حزب الوفد وأبى . . إذا أخطأ خالى فله عذره ، وإذا انخدع عمى فله أيضا عذره ، كلاهما عليهما واجب طاعة ولى الأمر ، وأبى هو ولى الأمر ، هو رأس الأسرة وكبيرها وله تراث طويل مشهود فى ميدان الذكاء والشجاعة وحسن التصرف ورجاحة العقل وسداد الرأى ، ثم أنه سريع الحسم ، . . وأنا لا أفهم شيئا . . توقف التاكسى وركبنا سيارة أجرة أشبه بتلك التى أركبها كل يوم عند ذهابى أو عودتى إلى المدرسة . . انحشرنا جميعاً داخلها . . كان فى جوفها آخرون . . بعد لحظة كان الكل يتحدث . . كلهم خرجوا من رهبة المدنية فانطلقوا يعبرون عن ارتياحهم جميعهم يتحدثون فى وقت واحد عن ذكائهم وكيف تخلصوا من الشراك التى وضعت فى حرص أمامهم للإيقاع بهم وبأموالهم أو بما ملكت أيديهم ، كل منهم يتحدث

إلى نفسه إلى الآخرين ، كلما انطلق التاكسى ، انطلق اللسان ، وظهرت أمواج المشاكل الخاصة ، تلاطمت حتى صارت مشاكلهم . . مشكلة واحدة . . تركز الحديث حولها . . وكنت أنا تلك المشكلة . . الجميـــع يقترحون ، يقولون ، يصيحون ، الجميع حكماء ، توقفت العربة وهبطنا . . صاح الرجل يتقدمنا راجلا :

ــ هيا .

وأخذنا نسير ، كان الجبل قد ظهر واضحا ، أشار أبى إلى دور أخواله وابتسم عمى وخالى ، تذكرت أن هذه القرية التى أراها على البعد هى التى آتى إليها مع جدتى كثيراً . . ولـكن نأتيها من الجهة المقابلة ، شعرت بالاطمئنان ، فهذه قرية أخوالى وأخوال أبى ، . . الرجل تبدو عليه علامات الجد ويسير فى المقدمة ، قلت :

ــ هل سنذهب إلى دار جدتى ؟

لم يهتم أحد بالإجابة على سؤالى ، كانوا جميعاً يتوغلون فى الجبل ، أصبحت قرية أخوالى بعيدة الآن . . الرجل أمامنا ولا طريق إلا ما يرسمه هو بقدميه على الرمال ، نمشى خلف الرجـــل لم يعد أحد يتـكلم ، أشعر بالصداع يدق فى رأسى ، . . وصلنا قبل الليل بقليل . .

الخيمة واطئة ، كدنا نزحف حتى وصلنا إلى منتصفها ، هناك اعتدلنا ، تعجبت من رحابتها من الداخل . . كان الرجل العجوز يجلس فى الوسط ، مهموداً ، نظر إلينا فى قرف ، أخذ الرجل فى شرح كل التفاصيل بدأها من أول لحظة تقابله معنا ، أخذ يعيد ويكرر بعض الجمل ، روى ما قالوه فى السيارة ، أعاد إلى مسامعنا كل ما سمعناه ، كف عن الـكلام ونظر إلى العجوز وهو يلهث ، قال العجوز :

ــ قرب .

دفعونى إليه ، حتى صرت أشعر بأنفاسه على وجهى ، حاولت الابتعاد ولـكن العجوز كان قد أمسك بيداى ، شلنى أمامه تماما ، أخذ ينظر إلى بعينين فيهما بريق ،

وحاولت مرة أخرى الفكاك منه لم أستطع ، كان عقلى يرفض ما أراه ، وكان فضولى يدفعنى إلى النظر ، كنت أشعر أننى أقوم بأحد الأدوار فى المسرح ، كثيراً ما أشعر بأننى شخص آخر ، وأحيانا أشعر بأننى مجرم مساق إلى الشنق ، أحس بالحبل الخشن حول رقبتى ، ثم أختنق فعلا ، وأموت ، أحيانا أفكر أننى كنت يوما ما هذا المجرم المشنوق ، وأحيانا أخرى أغفو للحظات قصار وأرى عوالم غريبة ، بعيدة ، وأنا أعيش فى هذه العوالم جميعاً ، أعود وأرى بريق عينى العجوز ، اندفع داخلهما أقود معركة حربية ، أمتطى صهوة جواد أحمر أرفع سيفا ، أقاتل ، أندفع ، أنتصر ، أتسلل عبر الأسلاك ، أضع قنابل النسف ، تنهد معسكرات العدو ، أقفز فوق الدبابة ، أدير محرك الطائرة النفاثة ، أعود لألتقط أنفاسى المبهورة . .

قال العجوز :

ــ سيعيش .

تهلل وجه أبى ، ابتسم خالى ، هز عمى رأسه فرحا ، دفعنى العجوز بعيداً ، جاء بالموقد ووضع بعض الأعشاب ، أشعلها ، صار وهجا أحمر ، رفع عوداً من العشب توهج نصفه ، لسعنى به فجأة على وجهى ، ارتفع الألم حاداً كالسكين ، اندفعت إليه فى غيظ ، رفعت يدى وهويت بها بعنف شبابى الثائر ، ما كادت يدى تصل إليه حتى أمسك بهـا ، قيدنى ، رحت أسبه ، حاولت التخلص ، شكوت . تألمت ، رجوت العون ولكن أهلى كانوا يجلسون فى صمت ، والرجل يمسك بى ، يخمد رأس العود الملتهب فى يدى ثم فى قدمى .. ثم فى عينى .. ونمت .

ياه الدنيا ظلام ، ظلام بالليل وظلام بالنهار . . ، أعمى أنا ، قابع فى انتظار الطعنة الملعونة ، . . أجلس فى توتر منتظراً ، ملعون هو الانتظار . ملعون هو العمى . . اسمع يا رجل خذ ابنك وعد به إلى بلدتكم . زوجه عروسا جميلة . ابتع له بيتاً . دعه يعيش . . والجامعة ؟ لا داعى . إنهم يدخلون الجامعة من أجل

الوظيفة وأنت لا تحتاجه موظفاً . فما الداعى لمكابدة الدراسة لمريض بعينيه ظلام ؟ لا . . لا يا قوم . إنى أتنفس . إنى أعيش . لا أحلم . لا أمثل دوراً لغيرى . أنا هو ذلك الشاب الجالس الآن فى انتظار طبيب العيون . لا تصدقوا ذلك المجنون . كنت أرى منذ شهـــور . كنت أقرأ الكتب . قرأت آلاف منها . وقفت بالساعات فى دكان بائع السردين وقرأت مكتبات بأكملها كان الوجل يشتريها من المزاد . يأتى بها ليبيع فى أوراقها السردين لزبائنه . قرأتها كتابا كتابا ورفا رفا قبل أن يمزقها ويجعل من أوراقها عبوات ينزلق عليها شرش السردين الح . كنت أرى حقول القمح وزهور البرسيم أحب رائحة الزهور . ترويني رائحة زهور البرتقال . أعشق رائحة زهور الليمون . أشعر بالحياة تدب فى جسدى كلما شممت رائحة زهور الحدائق .. كنت أرى العصافير وفراشات الحقول وأبصر سحر الليل . أبصر .. نعم أبصر سحر الكون وتماوج الألوان وامتزاجها والآن جاء دورى لأغنى لكم ألوانى أنا ..

-- تحزن هكذا ؟

-- أنا لست حزينا .

-- فى العام القادم يمكنك مواصلة الدراسة فى الجامعة .

-- وما الذى يمنع أن أواصلها من الآن .

-- أنت ..

يعيد طبيب العيون ملأ الحقنة . يحاورنى فى حديث حتى ينسينى ما يفعله . أعلم أنه سوف يغرز الحقنة فى عينى . أعلم أنى بعد لحظات سأدخل عالم الألم المظلم الكئيب . أعلم أنى سوف أختنق من الألم ولكنى أستسلم . هو يمارس دوره فى أن يجعلنى فى كل مرة لا أنتبه إلى لحظة انغراز الحقنة فى عينى . وفى كل مرة ينجح عشرات المرات . ثم مئات المرات .. ثم آلاف المرات .. ثم .. أعود إلى نفسى . خالى يقول :

— لا شيء مهم . . يكفي أن يعيش .

عمي يقول :

— كنت أتباهى بك عندما تكون أنت الوحيد الذي ينجح ولكن الآن . .

أبي يقول :

— الحمد لله .

ثم يطرق برأسه لحظات ، يعود بها يحكي لمن حوله الحكاية من أولها منذ أن كنت صبيا في المدرسة ، وذهبنا إلى الطبيب وسألنا عن صحة الأعمام والأخوال والأجداد . . يحكي أبي متوسلا إلى طبيب عيون .

— خذ كل ما أملك ، خذ جلبابي ، خذ دمي .. فقط قل لي أنه سيشفى ويبصر .

— وبعد يا عمي الحاج ؟

نعم وبعد يا أبي .. هل تعرف بقية الحكاية ؟ هل يمكنك أن تتم فصولها لماذا لم تخبرهم بأن كل شيء باطل ، لماذا لم تقل لهم أنهم هناك في المدينة سرقوا منا الحلم ، سرقوا منا الأمل ، لماذا لم تقل لهم . . أنهم هناك في المدينة . . كان الخال والعم ، قبل الأب ، يهرولون في مرح نحو الجامعة في أيديهم أوراق الابن ، كل منهم يحاول أن يكون هو أول من يدق الباب ويفتحه لابنه ، أو ابن أخيه ، أو ابن أخته لكي يدخل منطقة الأمل . . وهناك في المدينة غيروا الأبواب ودخل الابن منطقة اليأس حيث كان هناك طبيب وطبيب . . وطبيب . .

ونظرت إلى الأرض الفضاء ، كانت هنا عمارة كبيرة ، لها مدخل واسع عال ، وسلالم ملتوية ، وعيادة وطبيب . . يرتدي طاقية رأس جلدية ، صاح :

— هذا غلام مظلوم ..

وعدنا إلى القطار ، كان الزحام قد أفسد المقاعد ، ولطخ الصور التي تزين بها الجدران ، وهشم زجاج النوافذ ، كان الزحام بركان انفجر في القطار فهشمه وخربه ، ولكن القطار ما يزال قادراً على السفر ، وعاد القطار واهنا متباطئا نحو القرية .

بجرى الماء يوازى الطريق الترابى ، يمضى مستقيما ، ينحنى ، يعتدل ثانية ، وبيومى يحاذيه فى سيره ، تلهبه حرارة الشمس ، يفكر فى طعام الغداء ، « نبوية » طبخت قلقاساً أخضرا ، هو يعرف أنها ستطبخ القلقاس ، أخذته من الأرض بالأمس ، رآها وهى تجذبه من الأرض وهى تفرك الطينة الهشة من حوله .. ومع هذا أخذ يفكر فى الغداء ، كان العمل اليوم مرهقاً ، جاءهم مفتش المنطقة ، كان يدور حولهم مثل النحلة ، يهدد ويعد . . قف ، وقف التلاميذ ، جلوس جلسوا ، محلقرا فى المفتش ، أحس أن لسانه يعصاه وأنه لن ينطق ، وحلقه جاف وزوره ملتهب ، أكل فى الصباح مشاً ورغيفا مقدداً وبصلا وشرب قلة ماء ، وسار على قدميه من الدار وحتى « الغيط » ومن « الغيط » إلى المدرسة ، وهناك اكتشف وجود المفتش ، زغده حضرة الناظر ثم بحلق فى وجهه . . بيرمى حاول أن يكون مهيباً فى حضرة المفتش ، صاح فى التلاميذ :

— من منكم حفظ سورة عبس ؟

ارتفعت الأيدى ، الأصابع الرفيعة المتسخة تنتفض فى حماس اختار المفتش أحـــدهم :

— قل .

اندفع التلميذ فى صوت سريع مضغوم .. قال المفتش إنهم لا يحسنون القراءة ، وصاح فى وجهـــه ، وكان عنيفا قاسيا على التلاميذ الأمر الذى جعلهم جميعاً يصمتون ، وعندما سألهم :

— من يحفظ سورة عبس ؟

لم ينطق أحد ، ولم يرتفع صباع واحد ، انكمشوا على أنفسهم . . فعلوا ما تفعله أهل القرى إذا جاءهم الأفندى انكمشوا داخل ذواتهم ، تركوه يسبهم ويتهمهم بالجهل ، ويصفهم بالجبن والخذلان ، وهم من كل هذه الصفات براء ،

لو أرادوا لدهسوا الأفندى بأقل مجهود يبذلونه ولكنهم ـ طوال التاريخ ـ مافعلوا، اكتفوا بالصمت والصبر ، ارتفع كرباج الأغا ، وسونكى الخراجه وعصا التركى ، وانتفخ وجه الشركسى وأحمر وجه الأناضولى وزام الأوربى ، ولكنهم أبداً أبداً ما انفعلوا . . تركوه يموت وحده ومات . . انكمش التلاميذ وتركوا حضرة المفتش يصرخ يتقافز يدور حول نفسه وفمه لا يكف عن الكلام ، مثل البقرة الراقدة فى الظهيرة تجتر الطعام ، والصبية يلعبون بعرائس الطين يصنعون لأنفسهم عالما يخصهم ، حتى تنتهى البقرة من اجترار الطعام .. وانتهى المفتش .. تعب وأخذ يجفف عرقه أخرج المنديل المحلاوى ، خلع الطربوش وبدأ يمسح رأسه ، انحنى وتهدلت عضلات وجهه ، فضحه المنديل المحلاوى بمربعاته ذات الألوان الفاقعة .. عراه ، وجعله يبدو مثل بيومى أفندى ، ضحك التلميذ عبد العال ، قلده التلميذ عربى . . سرى الضحك فى الفصل ، نظر بيومى إليهم فى رجاء ، رمق حضرة المفتش وهو يجفف رأسه ، اكتشف خرماً فى المنديل المحلاوى . . تبادل مع تلاميذه النظرات ، كفوا عن الضحك ، زال التوتر واقتربوا من المفتش ، وعندما سألهم :

— من يحفظ سورة عبس ؟

ارتفعت الأيدى ، اختار أحدهم ، جلس التلميذ محمود فى خشوع ضم يديه فوق صدره ، تلاها فى حلاوة ، ران الصمت وخشعت القلوب . . ماذا لو خرج المفتش اليوم غضبانا ؟ .. ستكون الواقعة ، وما أدراك ما الواقعة ، وفكر فى الغداء .. قلقاس .. قلقاس .. زوجته لا تمل من طبخه . .

انقطع مجرى الماء ، اقترب بيومى من الحوائط الطينية ، دخل الحارة ، الجو الحار الخانق ، والتراب العالق ، وذباب يطن حول الرأس ، ودوار فى الدماغ ، والأطفال يزومون .. يتوارون.. الأفندى قادم ، رفع الباب ودخل الدار ، لو أن صحن الدار مغطى لجلس من فوره ، ولكنه بلا سقف ، والشمس مسلطة عليه .

وحمار يقف مسطولا ، ودجاجات فرت فور دخوله . . وذباب ، وكلب نائم لم يرغب فى الاستيقاظ ، عبر صحن الدار ودلف إلى « القاعة » . . أقصد غرفة النوم حيث كانت امرأته نائمه فوق مصطبة الفرن ، لحم الفخذ تعرى ، انسلخ عنه القميص الأصفر ، أدرك أنه يبحلق فيها ، ارتجف وذكر إسم الله ، استدار وخلع الطربوش والجاكيت ، تذكر ليلة الأمس ، أعاد النظر إلى زوجته النائمة ، وسيل العرق يغرق فتيلا من شعر الرأس الأسود سحبه حتى ألصقه بالخد الوردى، فمها مزموم ، تبدو إنسانة أخرى غير تلك التى يعرفها ، رقبتها وأول صدرها يلمع عليهما العرق .. فكر فى أن يتخلص من ملابسه وينام بجوارها ولكنه تذكر الغداء ، وصلاة العصر ، ونوبة الرى وحزمة الكراريس التى يحملها .. استدار وأصدر صوتاً يعلن وجوده ، فى الحال سمع صوتها مرحبا به ، وعندما عاد ونظر خلفه وجدها وراءه تحمل الجلباب الأبيض . . انزلق داخله متخلصاً من كل ملابس المدينة ، استراح .. وأحس أنه أصبح أطول قامة ، وأكثر دراية بنفسه ، بدأ صوته يخرج من فمه فى حرية ، تحرك فى كل اتجاه دون أن يكون هناك داع لكل حركة . . كان الماء البارد ينزل على رأسه فيجعله ينتفض فى سعادة . . تذكر طفولته عندما كان يتخلص من جلبابه ويقفز فى الترعة ويرى فقاقيع الماء من حول رأسه . . يضرب الماء بيديه وقدميه ، يصدر صوتا بفمه لا يعنى شيئا ، مجرد صوت . يكفى أنه يستعمل كل حواسه .. إنه يعيش . . أراد أن يفعل ما كان يفعله وهو طفل ولكنه تذكر وجود زوجته ، استبدل صياحه الطفولى بالبسملة . .

وعندما وقف يصلى كانت رائحة الدخان مختلطة برائحة القلقاس « القرديحى » تمتزجان .. وعندما انتهى من صلاته كانت نبوية قد وضعت الطبلية وفوقها حلة القلقاس وطبق معدنى وملعقة من نحاس بجوارهما ووضعت فوطة مزركشة الألوان فوق رأسها واستعدت لخدمة بيومى أثناء تناوله الغداء . .

• بيومى فى الإعارة :

استدعاه الناظر إلى حجرته ، وقف متحيراً أمامه ، كان الناظر لا يحب أن

يصدر أوامره مباشرة ، بل يجلس خلف مكتبه تعبث يده بالسبحة ، مستمتعاً بكونه حضرة الناظر ، يرمق حضرة المدرس بنظرة سريعة فاحصة ثم يغيب عن الوجود وكأنه يفكر ، فيبدو مثل أحد العلماء أو الفلاسفة . . وبعد وقت طويل يرفع رأسه ويأخذ فى شرح ما يريد أن يقول بادئا بروايته قصة أو ذكر مثل أو إلقاء مجموعة أبيات من الشعر القديم .. ثم يذكر فى تفصيل ممل ما يريد أن يقول حتى ولو كان بسيطا لا يستحق كل هذه المقدمات ، فى هذا اليوم نظر إليه حضرة الناظر ، تفحصه فى غيظ واضح ، وقال له باختصار شديد ، وبطريقة لم يتعودها بيومى أفندى من حضرة الناظر .

— مبروك الإعارة .

وانخفضت رأس حضرة الناظر بعد نطقه بالكلمتين القصيرتين ، وانشغل بشيء آخر وترك بيومى أفندى منتظراً ، لم تكن هذه عادة حضرة الناظر ، لهذا ظل بيومى أفندى واقفاً حتى تجمع المدرسون حوله واخذوا يشرحون له الأمر أكثر من مرة ، ومن جميع الزوايا حتى بعد أن أخرجهم حضرة الناظر من حجرته فقد تجمعوا حول بيومى أفندى فى حجرة المدرسين ، وتعطلت الدراسة ، وتوقف نشاط المدرسة ، بل لم يحاول التلاميذ إحداث الضجة المعهودة عندما يكتشفون غياب المدرس عنهم . . وضع عبد التواب الكثير من الشاى .. وامتد الوقت . . ودق جرس انتهاء اليوم الدراسى .. والمدرسون يشرحون ويعيدون الشرح بكل الطرق لبيومى أفندى .. ما هى الإعارة ، وذكروا له كل التفاصيل سواء تلك المتعلقة بالمهام التى يجب أن يقوم بها من الآن وحتى ركوبه الطائرة أو تلك التى تتعلق بعمله هناك فى بلد الإعارة ، وأيضاً ما يجب أن يفعله عندما يعود .

وانفتح أمام بيومى أفندى باباً لم يكن يفكر فيه أبداً ، بل لم يكن يحلم به مجرد حلم ، فهم فى كل عام يكتبون استمارة رغبات الإعارة مثلما يكتبون استمارة رغبات النقل أو العهدة أو أى استمارة أخرى مطلوب تسويدها .. مجرد إنهاء إجراء

إجراء تعودوا عليه كل عام ولكنه لم يفكر مطلقا فى النقل من تلك المدرسة التى لا تبعد عن داره إلا بمسافة قصيرة يقطعها سيراً على الأقدام فى نصف ساعة ولم يكن يحلم بالعمل مفتشا ولا ناظراً ، بل لم يكن يطلب تغيير سنة أولى .. إن حياته فى المدرسة مجرد واجب ، مثل واجب حضور العزاء فى المندرة ، أو واجب حضور فرح أحد شبان القرية ، لم يفكر أبداً فى أن يتخلى عن واجب العزاء ولا عن واجب المشاركة فى الفرح .. مجرد واجب يؤديه ، دون انفعال بحزن أو انفعال بفرح ، يؤديه وهو يفكر فى الأهم ، فى حقل القلقاس وشرخة البرسيم وقيراط الفاصوليا ، فى البقرة والحمار ونوبة الرى .. فى نبوية والطفل المنتظر .. لا يأمل فى زيادة شرخة البرسيم ولا قيراط الفاصوليا .. إنها عقائد لا تقبل الجدل .. والطعام لا يهم إذا كان قلقاساً باللحمة أو قلقاساً قرديحى .. بل لم يفكر فى ملابس جديدة طالما القديمة تقوم بالمطلوب .. فماذا يفعل بكل هذه الدنانير .. بل ماذا يفعل فى البقرة والحمار ونبوية .. وجلس طول ليله مفكراً وفى الصباح كان فى السوق وباع البقرة والحمار وبدأت حياته تأخذ صورة أخرى .. لم يعد ينظر خلفه ..

• بيومى فى الغـــربة :

قالوا له سوف نجدد لك عاما آخر ، لم يجب لأنه لم يعد ينظر خلفه ، قالوا لماذا لا تشترى السيارة والخلاط والمروحة ، لم يجب ، سنوات .. سنوات .. لا يفعل شيئا سوى حضور الواجب .. من يحفظ سورة عبس .. اقرأ .. والعيش المقدد صار طريا والقلقاس تحول إلى جبن أبيض مخزون يأتى به كل عام .. ولا شىء غير هذا .. لم يتعود الإنفاق فى طفولته ولم يتعوده شابا فلماذا يتعوده رجلا .. نبوية تعد الطبلية وترص العيش الفينو وتضع الطبق بجواره الملعقة النحاس ثم طلبت الجبن .. وتستعد لخدمة زوجها أثناء تناوله طعام الغداء والفوطة المزركشة على رأسها وأبريق البلاستيك فى يدها . . أحست هى الأخرى أنها بلاستيك .. أبريق النحاس يلمع ثم ينطفىء .. يحتاج إلى يد تلمسه تعيده لامعاً ، أما البلاستيك فلا يلمع

ولى ينطفىء .. يظل مهموداً كما هو .. حتى إذا سقط لم يحدث صوتاً ، نبوية تنام وتصحو وصوت المكيف يئن ، أخرسها المكيف وعطل قواها ، لم تعد لديها دجاجات تتنافز خلفها وهى تلقى إليهن بحبات القمح ، لم تعد لديها بقرة تتشممها عندما تدنو منها ، تسألها ، تمسح بيدها على رقبتها ، تقرفص تحتها تحلب لبنها ، يرتفع أزيز الحليب ورائحة الدسامة فى أنفها .. أزكمها المكيف .. والشارع المرصوف ، والشمس الحارقة، والريح الخانقة ، وأهل ثمود، وما أدراك ماالوعود؟. لص الأيام يزحف ، يأكل كل الثريد ، لا يبقى ولا يذر .. وإنهم لحياتهم كارهون . فى العودة يرغبون .

ولكن .. وعاش بيومى أفندى يدور حول لكن .. لم يعد لديه نوبة رى ، يحصى الأيام فى انتظارها ، يتحفز لقدومها ، فإذا أهلت اختطف حبل البقرة ، قادها بسرعة ، وحماره يحمل عدة الساقية ، فإذا كان حظه حسنا سمح له جاره بالرى، وانشغل ليله بسقى الأرض وعاد فى الصباح مبللا بماء الرى ، معلنا انتصاره ، أما إذا عانده الحظ والجار ظل ليلته ساهراً مترقباً حتى لا تفوته النوبة .. ويذهب زرعه هباء ، ولم يعد ينتظر ولادة البقرة ولا فقس بيض الدجاج .. بل لم يعد لديه واجب العزاء ولا واجب الفرح ، لم يعد أمامه إلا واجب واحد يفعله كل يوم .. كل يوم بنفس الطريقة ولمدة اثنى عشرة عاما .. وماتت نبوية وعاد..

• بيومى فى بلاد السكانيا :

المال مال الله ، ولكل أجل كتاب ، ولا وارث إلا الله والبلدة غير البلدة ، عربات .. عربات .. جرارات .. ألوفات ناس لا يأكلون الملقاس قرديحى بل يأكلونه مهروساً بلحم الخراف ، والشوارع لم تعد كما كانت أصبحت جراجات.. والدار التى تركها لم يجدها .. والشرخة وقيراط الأرض لم ير لهما أثراً .. تحول العنب إلى حصرم .. وضحك الأطفال وقالوا معلمنا عاد وسوف يجعلنا نردد خلفه سورة عبس .. تفرقوا من حوله .. لم يعد هو بيومى أفندى المدرس ولم يعودوا

هم تلاميذ .. بل أصبحوا رجال أعمال حديثهم عن السكانيا .. والمقام لا يقاس إلا بعدد السكانيا .. فمن يملك واحدة له حق التصويت والكلام ومن لديه اثنتان له حق إسكات الأول ومن يملك ثلاثة يتزعمهما .. ومن يملك أكثر يأمر الجميع بالسكوت فى حضرته .. ومن لا يملك لا يتكلم ولكن له حق الفرجة والتسول .. فماذا يفعل وربع المليون فى جيبه ؟ هل يشترى السكانيا سيارة النقل العملاقة ؟.. لا .. بل يبنى عماره .. بل قل قصراً .. وقد كان .

هكذا شاهده فى الخليج ، قصراً متواضعاً ولكنه جميل ، وقف يتأمله من الخارج ، استمر العمل فيه أكثر من عام ، وتكلف كل ما أدخره من مال ، هذه الشقة له ، تكفيه فهو وحيد بعد أن ماتت نبوية . حجرة للنوم والصلاة والقراءة .. وصالة بها مائدة ثم دورة مياه .. أما بقية الدور الأول فهى للإيجار .. والطابق الثانى أفضل من الأول به شقتين كل منها إيجارها الشهرى يوازى راتبه فى مدرسة القرية ، والطابق الثالث .. أفضل من الطابقين الأول والثانى .. أجره أيضاً للأطباء .. أحس بالسعادة أصبح يملك شيئاً .. فى الصباح يغسل السلالم وينظفها وفى المساء يكنس الشارع أمام القصر .. وأثناء النهار يجلس مرتدياً جلبابه الأبيض فى الفراندة يقرأ الكتب فإذا سمع الآذان أسرع للصلاة فى المسجد المجاور . وفى الليل ينام فى أوله حتى منتصفه ثم يصحو يأخذ فى التلاوة والصلاة .. أحس أخيراً بالراحة .. لو كانت نبوية هنا لسعدت بالقصر .. ولكنها لم تعد موجودة .. وهو لا يرغب فى الزواج بأخرى .. وجاءه فى الصباح تلميذ قديم ، جلس وشرب الشاى وتحدث عن السكانيا ، ظل يتكلم كثيراً عن الأخلاق التى أفسدها الأثرياء، وعن دوره الصالح فى إعادة بناء الإنسان ومسجد الناحية وإقامة مولد سيدى الغلبان ، ثم قال فى تربص :

ــ أشترى منك هذا القصر .

لم يصدق بيومى العرض ، نهض واقفاً وجلس . يحلق فى التلميذ القديم .

— ماذا تقول يا عبد العليم !

كرر عبد العليم رغبته فى شراء القصر ، عرض الآلاف ثم عرض مئات الآلاف ، لم يكن بيومى أفندى يتصور أنه يبيع ما بناه فى يوم من الأيام ولماذا يبيعه ؟ .. وماذا يفعل بالمال ؟ . . ثم لماذا داره بالذات والأرض براح والمال يبنى ما يريده الإنسان .. لماذا تريد شراء دارى ؟ ! ..

— أنت ترفض ؟

هز بيومى رأسه ، مضى عبد العليم ، جلس بيومى بعد توديعه مهموما ، كان عبد العليم أكثر التلاميذ حفظا لصورة عبس فماذا جرى له ؟ .. نام وقد نسى الأمر كله .

• بيومى فى السكانيا :

فى الصباح زار قبر نبوية ، سألها أن تسامحه فقدكلمه أحدهم فى أمر زواجه ، لم يرفض ولم يوافق ولكنه أحس أنه أخطأ فى حق نبوية ، جلس بجوار القبر وفكر فى مستقبله ، وجد نفسه ينتبه على صوت قارىء السورة ، قال :

— سأعود إلى البيت .. أحس البرد فى جسدى .

مر على المسجد وصلى العشاء ، أخذ دواء الكحة ونام على وضوئه ، شاهد الجبل الأخضر يتحرك نحو اليمين ، ثم قام الجبل وجرى فى ارتباك ، اتسع المكان ورأى بيومى نفسه وقد أحاطت به الخضرة من كل جانب ، انحنى وقطف ورقا أخضر ، نظر فيه فإذا به يتحرك ويتحول إلى دود أصفر ، رما بيومى بما فى يده وأحس الرعب أراد أن يجرى ولكنه لم يستطع ، حاول أن يصرخ ولكنه سمع صراخا يكاد يثقب أذنيه ، حار فيما يفعله ، جمع قواه وحرك ساقه ما كاد يحركها حتى سقط على الأرض،سمع الصراخ حاداً ومدوياً لامرأة تستغيث ، تنبه مستيقظا ، وقف ونظر إلى ساعته فوجدها الثانية صباحا ، عاد الصراخ أكثر حدة وبه ألم ،

فطن إلى أنها جارته أم فوزية ، تسكن فى قصره فى نفس الدور وشقتها أمام شقته ، مع زوجها وابنة صغيرة ، ماذا يا ترى حدث ؟ .. هل يظل واقفا مثل الثور لا يفعل شيئاً وامرأة جاره تستغيث ؟ ! .. أعوذ بالله .. اندفع بجلباب النوم الأبيض ونسى انتعال الحذاء ، وجد بابها مفتوحاً . اقتحم الصالة ، كان النور مضاء ، وأم فوزية عارية كما ولدتها أمها .. كانت تبكى فى قسوة وشعرها أسود يهتز بشدة ، اصطدمت عيناه بجسد المرأة العارى الأبيض الذى يلمع تحت النيون ، ارتجف واستدار بلا إرادة نحو الباب ، انغلق الباب وأوصد من دونه ، ارتفع الدم يغلى فى عقله ، وقع على رأسه جبل تهامة ، تلفت فى ذعر نحو المرأة ، أحاط به سبعة رجال ، أحدهم أشهر سيفه ، عصا غليظة تكفى لتدق عنق الجمل ، ارتعش جسده ، وارتبك عقله . انهمر العرق البارد من كل خلايا جلده ، فتح فمه وحاول أن يتكلم ، قال الرجل المسلح :

— ألا تتقى الله يا بيومى ؟

لم ينطق ، اتسعت حدقتاه . اهتزت شفته السفلى ، أحس بطنين هائل فى رأسه ، نظر إلى المرأة العارية فى استغاثة صامتة ، رمقته المرأة بنظرة باردة ثم انفجرت باكية ، هوى أحدهم على وجهها صفعاً ، حال الباقون دونهما . أبعدها الرجل المسلح وأمرها بستر عورتها . كانت العيون مسلطة على بيومى الذى راح يهتز كشجرة فى عاصفة ، لم يكن يدرى من أمر نفسه شيئاً . لم يقابل مثل هذا الموقف من قبل . بل لم يقابل موقفا سيئا على الإطلاق فى حياته ، وإذا كانت زيارات حضرة المفتش تعد فى نظر المدرسين من الأمور الجسام ، فإنها تعد بالنسبة لبيومى أفندى أقسى ما تعرض له من مواقف ، بل تعد من أكبرها أهمية وقسوة . .

وبعدها وقبلها لم يتعرض لشىء . كان إذا مشى نظر إلى الأرض ، وإذا شعر برغبة أحدهم فى الهجوم عليه ابتعد عنه . وإذا اشترى لم يساوم ، وإذا باع لم يعترض على الشارى ، فهو بالقليل يقبل . وبالقليل يعيش .. لاداعى يا بيومى

للدخول فى المعارك . . نبوية كانت تقول له امشى جنب الحيط .. ليست لنا دعوة بالآخرين .. نخفى خيرنا وشرنا .. ومضت الحياة ببيومى وهو كاف لخيره ولشره فإذا به اليوم بل الليلة يقع فى مصيدة لا فكاك منها ..

— وقع على هذا ..

ناوله أحدهم القلم ، رفع رأسه وظهر أنه على وشك الاعتراض .

أكمل الثانى :

— قتلك الآن حلال ومباح .. من حقنا .

قال ثالث :

يجب أن يحضر أهل البلدة ويروك فى هذا الوضع .

بصق الرابع بالقرب منه فى احتقار وقال :

— تعتدى على حرمة جارك .. أيها العجوز الفاجر .

القلم فى يده يرتعش ، وعقله فى رأسه يرتعش ، حاول أن يتذكر شيئاً يقوله ، كان الظلام يسود داخل دماغه ، والقلم يبرق تحت اللمبات الكهربائية . . نيون يزغرد فى وحشية تغذيها نظرات الرجال .

— وقع وإلا ..

ووقع بيومى أفندى . ثم وقع مرة أخرى ، ثم مرات أخريات على شيكات لاتذكر فيها الأرقام ، وقع على كل الأوراق .. ماذا لو رفض التوقيع ؟. القتل، وماذا لو قتلوه ؟ .. ملعون يا عقل الأفندى ..

انصرفوا يضحكون . وضعوا الأوراق والشيكات فى جيوبهم وغادروا القصر وهم يضحكون .. ماذا سيفعلون ؟ .. ماذا لو رفض التوقيع .. الفضيحة ومن يفضحون .. كهل مجنون استمع لاستغاثة امرأة جاره .. كهل مجنون حاول الاعتداء على امرأة جاره .. كهل مجنون اشتهى امرأة أخيه .. ماذا لو فضحوه ؟

أفندى المدرسة الذى يعلمنا الدين فاسق ملعون .. يشتهى ما حرمه الله .. ويعتدى على عفة الجارة .. ولا يراعى عمره ، ولا أصول الجيرة .. ماذا لو قتلوه ؟ .. إذا قتلوه أراحوه ، سيقولون قتلنا الخائن . من اعتدى عليك فاعتدى عليه بمثل ما اعتدى عليك . . واقتلوا الفاسق الذى يهاجم المحصنات المؤمنات ، أرجموا الفاسق الذى يقول ما لا يفعل ويفعل ما حرمه الله وهو الداعى إلى الحلال . ماذا لو رفض التوقيع ؟ .. بل ماذا لو رفض سماع استغاثتها .. أى مجنون هو ، بل أى عبيط مأمون ظل يعلم التلاميذ سنين عدداً وما علم نفسه ، عبس وتولى أن جاءه الأعمى .. أى أعمى أنا يا بيومى .. يا مدرس اللغة والدين .. فى مدارس قارة أفريقيا وآسيا يا من سافر بالطائرة وركب السيارة والحمار والساقية ، يا من أكل من كل خيرات الأرض .. أين عقلك يا بيومى .. طار . اسألوا أهل العلم إن كنتم . . . ، هاكم كتابى .. فاذا كان قميصها قد من دبر . صدقت وكنت من المكذبين .. كانت عارية يا بيومى ، لم يكن عليها ما يسترها .. مجنون .. عالم مجنون .. لم تعرف يا بيومى أن جارتك الشابة أختا لعبد العليم ، لم تعلم يا بيومى إن كنت تعلم ولكنك لم تفهم إنه يريد قصرك .. فإذالم يستطع الحصول عليه بالمال فبالمكيدة والحيلة . وها قد أسقطك فى شباكه .. ها أنت يا بيومى لا تدرى ماذا يفعل بالشيكات وماذا يفعل بالأوراق . بل لاتدرى يابيومى ماذا يفعل بك أنت. اذهب يا بيومى .. أجرى .. اهرب بجلدك .. هذه البلدة فسق فيها أغنياؤها فهى منكودة .. مهدودة على أهلها الفاسقين ولن ينجو منها إلا العشاق المقربين، وأنت من عشاق العشاق ، ومن ألصق المقربين .. ها قد نجوت يا بيومى وتخلصت من القصر ، من دراهم خليج ابن المغيرة ومن متعلقات الدنيا .. ها قد طهرك عبدالعليم من دنياك .. حررك من المال الذى كان يشدك إلى الأرض . جعل لحياتك قيمة .. ها أنت الآن مبارك .. أفنيت عمرك فى تعليم التلاميذ دون مقابل ، لوجه الله .. اهرب يا بيومى من هذه القرية الظالم أهلها ، اهرب بعملك الصالح ، ها هو مجرى الماء أصبح ضحلا ، والطريق الترابى أصبح لزجاً من زيوت السيارات ، حتى ماء

أصبح أزرق ، وأشجار التوت تساقط أوراقها ، حرقها دخان مصانع الطوب . . والأرض السوداء صارت بركا للماء الآسن قد سرقوا ترابها .. وما عاد الزرع الأخضر ، بل سادت الظلمة وجه الأرض ، واكتست الطرق بشحم العربات .. شاهت الوجوه .. واقتربت الساعة .. وهرب بيومى وترك قصره ..

• بيومى فى العـــودة :

تجلجل ضحكات عبد العليم داخل حجرات القصر ، سعيد بابنه الذى التحق هذا العام بالمدرسة ، وجلس فى أول الصالة يرتل بصوته الصغير :

— عبس وتولى ..

قاطعه عبد العليم فى غلظة :

— أليس لديك إلا هذه السورة .. اقرأ غيرها .

كف الغلام عن الكلام ، يحلق فى فراغ النافذة ، كان الشارع يسوده الظلام ، ومع هذا لمح شيخاً عجوزاً يقول له :

— أكمل يا بنى .. عبس وتولى .

انتفض الغلام خائفاً ، هب إليه أبوه فى لهفة أشار الولد إلى الشارع ، جرى عبد العليم ينظر سمع صوت ينادى :

— يا بـــلد ؟

وعرف فيه عبد العليم صوت بيومى ، شهق ، وضع يده على صدره ، هوى إلى الأرض ، صرخ الغلام فى رعب .. مات عبد العليم .. انفجر الخبر .. ماذا جاء بك يا بيومى ؟

لماذا عدت لقد نسيناك ، قال فى هـــدوء :

— من منكم يحفظ سورة عبس ؟

لم يرفع أحدهم أصبعه ..

• • •

حضر فى المساء ، وجلس معنا حول الطبلية ، ران الصمت ، وعمت الحيرة ، ونظر الكل إلى جدى الذى نكس رأسه وراح يمضغ فى اجترار ، وظهر التاق على يد جدتى ، وهى تفرق علينا الطعام - فى العادة كنا نتحدث ، جدى - الذى لا يأكل كثيراً - كان يدلى بتعليماته حول العمل فى الغد ، ونحن - بحكم العادة - نعرف أن هذا هو الوقت المناسب لمعرفة ما يجب عمله ، لأنه بعد العشاء ، يتسرب كل منا إلى طريق ، وفى الصباح ، وطول اليوم ، يفرقنا العمل فى الحقل ولا نعاود التجمع والإصغاء إلى جدى إلا فى المساء وحول الطبلية فى العشاء .. ولكن هذا المساء حضر أبى .

* * *

فى الكتاب ضربنى المعلم بعصاة عندما أخطأت فى العد ، آلمتنى الضربة ، ولكنى تحملت ، وعندما خرجت مع الاولاد ، جمعت الطوب فى حجرى ورحت أقذف نافذة الكتاب بالطوب ، ولم يحاول الاولاد اعتراضى ، ظلوا بعيداً ، يتفرجون ، وعندما فرغ ما لدى من الطوب ، همس أحدهم :

— ربنا يستر .

وفى اليوم التالى أخذ المعلم يضربنى بقسوة كلما أخطأت ، حتى ولو كان الخطأ هيناً ، ولكنى لم أصرخ ولم أظهر الألم ، وبعد انصرافنا من الكتاب ، أحاطنى الاولاد وقالوا :

— لماذا يفعل المعلم هذا ؟

وفى اليوم الثالث لم أدخل إلى دار الكتاب ، وعندما دخل الاولاد دونى ، جمعت الطوب فى حجرى ، وانتظرت حتى بدأ المعلم الدرس ، وبدأت الرمى ، انهالت من حول المعلم الجمرات ، وارتجف بشدة ، عندما أصابته إحداها فى أنفه ضحك الاولاد بشدة ، وهرول المعلم خارجاً ، وانطلق نحوى ، ولكنى

وقفت متحديا ، تقدم منى رافعاً عصاه، ظللت واقفاً فى مكانى ، .. كنت أسترجع ما قاله لى أبى عندما زارنا لآخر مرة :

— كن رجلا .

وكنت ، هوى المعلم بعصاه فنزلت على كتفى الأيسر .. لا تدع الناس يعلمون بألمك ، انخلع الكتف الأيسر من الألم . تماسكت ، كان خدر الألم يشلنى ، توقدت عينا المعلم بشرار أحمر ، ورفع عصاه وهوى بها على الكتف الأيمن .. لا تدع الناس يعلمون بخوفك ، انشق صدرى من الداخل وازدادت ضربات قلبى، ولكنى تماسكت . رفع المعلم عصاه ، ولكنه نظر فى عينى ، وظل ممسكا بعصاه فى الهواء ، .. صاح الأولاد وهم يتكومون حولنا .

— اذهب قبل أن يقتلك .

ولكنى لم أذهب ، ظللت واقفاً ، هوت عصا المعلم وأحدثت دوياً بجوار أذنى ولكننى لم أشعر بها ، .. الغيظ يقتل عدوك وشجاعتك أمامه تصيبه بالشلل فى مفاصله ، .. تراجع المعلم إلى الخلف ، ثم استدار ، بحلق الأولاد حولى وراحوا يتحدثون ، كنت أرغب فى البكاء ، .. مضيت نحو الدار والأولاد يحوطنى ، دخلت دارنا وتلقفتنى جدتى فى حضنها وهشت الأولاد وأغلقت الأبواب ، عندما صرت معها وحدى انطلقت باكيا ، رفعت جدتى الجلباب ، ولولت فى فزع عندما رأت دمائى تسيل ، الدم الأحمر فى كل مكان .

* * *

.. فى الحقل أكون السيد ، وعندما أقف على حافة الترعة ، وأنظر إلى الماء وهو يجرى كنت أشعر بأنى قادر على الجريان مثل الماء فى الترعة ، أخلع ملابسى، وأندفع نحوه أغوص فى الماء ، أقاوم الغوص داخل الماء ، .. كن قوياً وانظر حولك فى ثبات ، أستبسل لكى أظل طافيا ، يجرفنى التيار ولكنى أقاوم أكاد أغرق ولكنى أقاوم ، .. كن سيد نفسك تكن سيد الأشياء ، أسبح فوق الماء ،

أحرك ذراعى وأجذب الماء نحوى ، أحرك رجلاى وأضرب بهما الماء فى قسوة ، ماء الترعة يستجيب لى ، .. كن ما تحب تجد ما تحب ، أتحرك ، أغوص ، أطفو ، أسبح ، أنا سيد الماء ، أخرج من المـاء ، أرقد على الحشائش ، أتقلب . أشعر بالشمس تتخلل جسدى ، أحس بالسعادة وحرارة الشمس تتدفق فوقى ، أقف ، أجرى خلف التور فى مدار الساقية ، تدور الساقية ، يندلق الماء من أفواه القواديس يزداد ارتفاع الماء فى «المروة» التور يخافنى ويسرع فى الدوران ، تدور القواديس أسرع ينسكب المـاء أغذر ، .. أتذكر شجرة التوت ، أندفع إليها ، أتسلقها ، أجلس بين أفرعها العالية . ألتهم بعض ثمار التوت ، أضع الثمرة فى فمى ، أطبق عليها ، أعصرها بلسانى يندلق عصيرها الحلو فى حلقى ، أتذكر أبى . .

لماذا هو غائب دائما ، لم أره إلا مرة ، حدثنى طول الليل ، ضحك فى وجهى ونهرنى عندما قبلته فى خده ، وفى الصباح ذهب ولم يعد ، .. لماذا لا يحضر أبى ، لو كان أبى موجوداً لجعلته ينظر إلى أعمالى وأنا أسبح فى الماء وأغوص فى بئر الساقية ، وأتسلق شجرة الجميز العالية ، ثم وأنا أصعد على النافذة ، كان قلبه سيسر ، وتسعده شطارتى ، ويقول :

— هذا هو إبنى حقاً .

ولكنه ليس موجودا ، ولن يرانى وأنا أقوم بكل تلك الأفعال ، ولن يسر قلبه ولن تسعده شطارتى .

* * *

مات المعلم بطلقة نار . حملوه إلى المقابر ، ذهبت إلى النعش وبكيت ، كان رجلا فاضلا وكان يعلمنى الأشياء التى كنت أجهلها ، وكان يضربنى ، وعندما توقفوا كانت الحفرة معدة ، نظروا إلى وجهى الذى بلله الدمع وبصقوا على التراب ، وضعوه ومضوا ، ظللت وحدى ، كنت أنظر إلى التراب الطرى وأفكر فى المعلم ، . . عندما كان يرفع العمامة نرى حبات العرق تلمع على صلعته ، وكان فى هذا الوضع

يبدوا مقهوراً حزيناً ونحيفاً إلى حد بعيد ، ثم يسحب المنديل من جيبه ويفرده ثم يأخذ فى مسح رأسه كما كنا نمسح الطباشير من على السبورة ، يبدو تعباً مجهداً ، وكنا وقتها نشعر بالرثاء من أجله . فنكف عن الضجيج وكل منا يتذكر جده ، وكان المعلم .. نظرت حولى كان غلام يتربع خلف المقبرة وفى يده حجر ، انطلقت خلفه ، دار حول المقبرة ثم أخذ يعدو متفاديا المقابر ، أرهقتنى مطاردته . لحقت به ،أمسكت بخناقه ، صاح وهو يرتجف :

— قتله أبوك بسببك .

تركته يفلت من يدى .

* * *

عندما سألت جدى فى المساء قال :

— العلم عند الله .

بعد عدة أيام نسيت الأمر كله ، ولم أعد أهتم بعودة أبى ، يعود أو لا يعود رحت أجوب الحوارى ، أدور فى الشوارع أبحث عن شىء ما أجهله ، أسمع أحيانا ضحكات النسوة من خلفى . وعندما أستدير يخرس الضحك ولا أرى إلا سواد الطرحة يغطى الوجوه ، وأحيانا أخرى أسمع عويلهن .. ولم أعد أذهب إلى الكتاب . وكان جدى أشد الناس فرحا بهذا القرار ، ولكنه بعد قليل بدأ يضيق بى ، ولم يعد يلتفت إلى بأمر ما ، كنت أفعل ما يحلو لى . ألف فى الحوارى ليلا أبحث عن القطط والأرانب التى لا تظهر إلا ليلا ، ولكن لم أعثر على شىء . يقلقنى هماً لا أدرى سببه وتزداد الرغبة فى البكاء ولكن الرجال لا تبكى أبداً ، الرجال يحملون البنادق ، ولم أبك ولم أحمل بندقية ، إنما كنت بكائى فتحجرت عيناى ، وانطلق لسانى بالموال ، وأخذت ألف الشوارع والحوارى ، وأسلك الدروب وأحلم - أحيانا - بعودة أبى .

* * *

. . سألتها عندما ضاق الصدر عن الكتمان ، والصبح على وشك الطلوع ، والجرة منداة بماء النيل ، ترفعها فى حيوية ، تجلس الجرة على رأسها وتميـــل ، يندلق بعض الماء على الصدر ، بان لحل الرمان وطاب ، .. أليس عندك جواب ؟ هل الصمت جواب ؟ .. ماء النهر غامق والجسر تراب ، والكعب المحسور عنه الجلباب يشدنى ، أكرر الموال .. الحب قدر غلاب ، يا شجرة اللبلاب ، .. ضحكت ترعرع الأمل فى القلب .. آه لو وافق أبى على العودة من أجلى .

* * *

. . واعلم يا أبى أننى راغب فى الزواج ، وجدى لا يتحدث فى هذا الأمر ، وقد تعلمت حتى الآن حرث الأرض . وفى الغد أتعلم بذر البذور ، فإذا ما عدت إلينا لتخطبها لى أكون قد تعلمت الحصاد . وبذلك أكون قادراً لكى أبنى بيتاً ، والسلام ختام .

قال جدى :

— وأين العنوان ؟

بكت جدتى . واحترت فى الجواب .

آه لو أنك معنا يا أبى .

* * *

. . ماء النهر ساكن ، والجرة فارغة . والأيدى مطروحة على الجانبين والقدر المرسوم ، والقسمة الظلوم ، .. وشبح أبى مارد يتمدد بيننا كقوم لا يفصح ، والأهل لا يوافقون . قالوا :

— الولد لأبيه :

أسرعت مبتعداً . مقهوراً . مغلوباً ، .. يا قلباً مقهوراً ، مكسوراً . يا حلماً لم يتحقق ، .. ارتدى قناع الظالم .. ولا تجعل الناس يعلمون بحسرتك ولتكن سيد نفسك .

* * *

. . كان الهمس يزداد من حولى ، ولم أعد اهتم بضحكات النسوة أو عويلهن ، أتمنى أن يموت أبى . تسجنه الحكومة . تنساه القرية ، أنساه أنا . أنا أحبه . أكرهه يختلط الأمر فى ذهنى ، أعشقه وأتمنى أن يعود وأن يجلس معنا حول الطبلية ، وأقص عليه قصة حبى . وأجعل السرور يملأ قلبه . وتمتلأ عيناه بى وأنا أحصد القمح ، ويقول :

هذا ولدى .

أكرهه . وأتمنى ألا يعود ، أهز رأسى حتى لا أتذكره ، كلمات أهل القرية حراب ، الولد لأبيه ليث الغاب . نازع الرقاب ، .. ولكنى أتمنى عودته ، لو كان موجودا لذهب معى إلى دارها وخطبها لى ، .. ولكنه لا يأتى أسمع عنه ولا أراه أخافه ولا أراه ، أحبه ولا أراه .. ما ذنبى أنا وهو أبى .

آه لو يعود .

. . .

. . فى المساء كان يجلس معنا حول الطبلية ولكن الطعام لم يعد له مذاق ، جدى منكس الرأس .. الصمت يطبق على الدار والخوف يشل الألسنة ، نتهلف على انصرافه . .

وكان الخوف منه أكبر من اشتياقنا إليه ، فقام وانصرف .

. . .

عندما سمعت دقا على الباب ، انتابنى ذعر هائل لا أدرى له سبباً ، فأنا قد تعودت حضور الأصدقاء فى أى وقت من ليل أو نهار ، وتعودت أن أقبل على حجرتى وأدبر كضيف يهل أو يمضى ، ومن كثرة التعود أصبح لا شىء مستوراً فى الحجرة وبالتالى لا داعى لغلقها بالضبة والمفتاح ، بل لا داعى لحمل المفتاح كذلك، كتبى موضوعة كما اتفق . وملابسى معلقة على مسمار مدقوق فى الحائط ، ووابور البريموس يعمل دون كلل أسفل براد الشاى الأسود ، والكل ضيوف . والكل صاحب الدار ، ولم يعد هناك ضيف ومضيف . بل الكل سواء من قام ومن رقد ، ومن حضر السمر فقط . والنقاش يدور مع أقداح الشاى ، كما يدور مع توزيع الطعام ، بل أن النقاش لا ينقطع عن الحجرة ليلا أو نهاراً لأنه لا يعدم أن يجد من بين الحاضرين مستيقظ يتكلم . والحجرة تتسع لكل هذا ولا أحد يشكو ولا أحد يتضرر .

والحجرة تقبع فى ركن من سطوح عمارة متوسطة الارتفاع . وأمامها مساحة واسعة ، أرضها مرصوفة بالبلاط ، ويحددها من كل الجوانب سور قليل الارتفاع، ومن المفروض أننى مستأجر الحجرة من صاحب العمارة فى مقابل خمسة جنيهات ، وبجوارها دورة مياه صغيرة .. والحجرة ودورة المياه يأخذان الركن الجنوبى من سطح العمارة . بل وكأنهما يكادان ينخلعان من مساحة السطح ليتركاه فارغاً ، تعوى حرارة الشمس على بلاطاته فى النهار . وتحنو عليه برودة المساء ، وتدلله وتنظفه رياح الشتاء وأمطاره وهو فى كل الحالات يتسع للصحاب مرحبا ، يجدون فى اتساعه عوضا عن ضيق الحجرة حينما تضيق بهم .. إذا ضاقت على كثرتهم .

والليلة ، خلوت إلى نفسى ، هرب الأصدقاء ورحلوا ، وانشغلوا بدروسهم فقد أزف الامتحان ، ولم تعد الحجرة بسامرها المقام تفيد ، فتركوها وفزعوا إلى كتبهم لعلهم يدركون منها بشىء ينفعهم ، وفعلت ما فعلوا . وآنست فى نفسى

رغبة المذاكرة ، وانفردت بكتبي وحيداً داخل الحجرة أراجع علوما كدت أنساها ، ولا أدرى كم من الوقت مضى حتى سمعت الدق على الباب ، وانتابنى الذعر ونظرت فإذا باب الحجرة موصد . وتلفت حولى فإذا بى وحيداً فى الحجرة لا أنيس ولا جليس . واستمر الدق وأنا جالس يشلنى الخوف ، أفزع إلى الأشياء بالحجرة علها تفسر لى الأمر من أغلق الباب وهو لا يغلق ، ومن يدق فى هذه الساعة من الليل ولم يكن يفعلها أحد من قبل . واستمر الدق ، وأنا أراجع ما أحفظه من القرآن ، أجمع شجاعتى لأضعها فى جسدى حتى أنهض وأفتح الباب .

— من ؟

عيناه بهما حزن مدفون . جسده نحيل . شعره تقلص فى دوائر غير منتظمة ، وجهه ينكمش فى توتر ، ملابسه وكأنها كانت له من زمن بعيد .

— من ؟

دخل وأخذ يحملق فى أركان الحجرة ، يتحسس ببصره ثم بيديه الجدران ، لمح النافذة الصغيرة التى تطل على الشارع الخلفى ، أسرع نحوها . دق قلبى خوفا ، أسرعت إليه استدار ونظر نحوى وسألنى :

— من تكون ؟

قلت فى شجاعة ونفاد صبر ؟

— بل من تكون أنت ؟

قال فى تلعثم واضح :

— أنا . .

وصمت ، راح يدور فى الحجرة ، جسده منهوك ، ويكاد يسقط ، قدمت له مقعداً جلس دون أن يتكلم . نظر إلى وابور السبرتو وأشار بيده ، لاحظت أن يده ترتعش وأن أصابعه رفيعة وتميل إلى الصفرة . وضعت أبريق الشاى وأشعلت السبرتو . ابتسم عندما رأى نار السبرتو . حملق فى الوابور وضحك ، اهتز وجهه

فى رعشة تشبه البكاء . لف يديه حول صدره ، ثم فكهما وأرسلهما أسفل ، تأرجحت اليدان وكأنهما معلقتان بكتفه ، ضمهما مرة أخرى ووضعهما بين فخذيه . ضحك وهو ينظر إلى الأكواب ، كان خوفى قد بدأ يزول ، أو قل أن خوفى انسحب تاركا فضولى ، من يكون هذا الشخص ؟

حاولت أن أتذكر وجهه من بين وجوه أصدقائى العديدين . كنت زعيما لمدرسة ما فى الجامعة ، وكنت ميالا إلى اقتناء الأصدقاء والمعارف ، كان كل همى أن أعيش الجامعة بكل أبعادها النفسية والعلمية والفكرية . لم أدع جماعة دون أن أميل إليها . وأسمع منها فإذا ما أحسست ضجراً ابتعدت . ولكن كانت هناك مجموعتى .. أو شلتى التى أتزعمها وأفرض عليها سلطانى .. أطلق عليهم الأوامر . والسباب والسخط ، وهم لا يردون لى مطلباً ، إذا اجتمعوا دونى كانوا كأعواد الحطب لا نفع فيهم . أو كمجموعة من الأحجار الصماء البكماء ، فإذا تواجدت بينهم تحولوا إلى بشر يضحكون ويلقون بالحكم ويقولون الشعر ، كل فرد منهم له حق أن يصطحب من يشاء من أصدقائه لكى يضمهم إلى المجموعة ، ولكن ما أن يجلسوا معنا حتى يصيروا مثلنا . إرادتى نافذة وكلامى مطاع ولهم حق الإنصات إلى حديثى والانتفاع بالحجرة كما يحلو لهم ..

حاولت أن أتذكر الوجوه ولكن هذا الوجه غريب لم أره من قبل .

— الشاى

أخذ الكوب . رفعه إلى فمه ، صرخت :

— إنه ساخن جداً .

ابتلع رشفة كبيرة . نفخ بفمه بعدها . اتسعت عيناه . التمعت جبهته ، قدمت له سيجارة مشتعلة ، أخذ يرتشف الشاى ويدخن فى جرعات متتالية ، حتى انتهى منهما .. نظر نحوى ، ورأيت وجهه قد استراح ، ورأسه قد كفت عن الاهتزاز ، وأسرعت إليه بكوب آخر .. وضعه أمامه ونظر إليه فى تودد . كان قد هدأت نفسه . قال :

— هذه الحجرة تخصنى .. إنها حجرتى .

— نعـــم ؟ !

كدت أصرخ وأنا أقولها ، ولكنى كتمت غيظى . بدأت أفكر فى خطة طرده أطفأت السبرتو ، وقذفت البراد فى عنف نحو الحائط ، ارتد مذعوراً كما جاء ، قلت فى عنف :

— اشرب .

هز رأسه نفياً . أخذت الكوب وقذفت به أمامه إلى ما وسعنى من جهد ، ارتطم الكوب بسور السطوح . أحدث دويا عنيفاً اهتز جسده بشدة ، وراحت عيناه تدوران فى محجريهما فى خوف ، تقلص وجهه وعادت إليه الصفرة . قلت :

— من أنت ؟

حاول أن يفتح فمه ولكنه لم يقدر . أعدت السؤال وقد أصبح الموقف فى صالحى فأنا الأقوى . وخاصة وقد تعمدت أن أقف وأجلس عدة مرات لأريه كم أنا قوى ، صحت مرة أخرى .

— من أنت ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟

انخرط فى البكاء . لم أكن قد أعددت نفسى لهذا الموقف ، وكانت كل حساباتى تقوم على أساس افتراض المعركة بينى وبينه كرجل مختل العقل . فوقفت فى حدة وراح هو يهدر فى البكاء انفتح كشلال لا يتوقف .. أسرعت أقدم له سيجارة ولكنه رفض . ذهبت وأحضرت البراد وأخذت فى صنع شاى جديد .. لم يتوقف عن البكاء إلا بعد أن أمرته بذلك فى قسوة ، كانت أعصابى قد تعبت . وكان الأمر قد أصبح سخيفا لا يطاق كابوساً مملا .. فالليلة تكاد تذهب هباء وفى الصباح ينتظرنى الامتحان .. ماذا أفعل ؟ لم يكن هناك بد من أن عاملة كطفل . اشرب هذا الكوب . دخن هذه السيجارة . كف عن الارتعاش . كن رجلا ولا تبكى . ضع يديك على ركبتيك . أجب عن الأسئلة التالية . اسمك ؟

— همام المرديني .

تصنعت الدهاء وهززت رأسي وكأنني أعرف كل شيء .. نظرت إليه في نفاد صبر .. وصحت :

— ثم ماذا ؟

ثم . . انهمر سيل الكلمات من فمه :

— أنا لم أكن معهم ، كنت فقط أسكن هذه الحجرة وكانوا جميعا أصدقائي جميعهم كانوا يأتون ، لا أدرى من منهم الطيب ومن منهم الخبيث ، كلهم كانوا أصدقائي . كلهم كلهم حتى هؤلاء الذين وشوا بي وتسببوا في سجني، كانوا أصدقائي . رأيتهم هناك في المعتقل، رأيتهم وهم يجذبون أظافرى بالكماشات . رأيتهم وهم يعلقون جسدى بالمقلوب وينهالون بخراطيم المياه ضربا ، كانوا كلهم . كلهم أصدقائي ، وكانت الحجرة تلك الحجرة لا تفرق بينهم . كانوا يستمعون لحديثي . وكنت أحدثهم عن الملك خوفو وعن سد مأرب . وعن الأطفال الذين يمسكون بأيديهم الشموع ، كانوا يصغون ويضحكون وينامون ، ويأكلون في هذه الحجرة كان بابها مفتوحا لا يغلق . وسعتها لا تضيق بهم مهما كان عددهم . وكنت أتلو عليهم أوامرى فيطيعون . وأنثر عليهم طعامي فيأكلون . وأمد لهم أكواب الشاى فيشربون ، وأنثر عليهم حكمتي فيصغون . كانوا جميعهم جميعهم . أصدقائي . حتى هؤلاء الذين جاءوني في لجنة الامتحان كان الامتحان الأخير وبعده أحصل على شهادة الجامعة وأعود إلى قريتي أسعد بها أمي الأرمل ، حتى هؤلاء الذين جاؤوا في لجنة الامتحان وأمسكوا بي . ورفعوني من فوق مقعد الامتحان وزجوا بي في سيارة مغلقة ووضعوا على عيني عصابة سوداء . كانوا ، وأقسم لك ، من أصدقائي وعندما قذفوا بي إلى طابور المظاليم حيث ينهال عليك الضرب من كل مكان وفي أي مكان وبأي أداة .. كنت أراهم من بين أيديهم التي تحمل الهراوات والعصى والكرابيج .. كنت أرى وجوههم وعيونهم التي تبرق كما كانت تبرق دائما

أقدم لهم الأطباق التى أرسلتها أمى من قريتنا . . ووضعونى فى الحبس وأغلقوا الباب وأنالم أكن أغلق دونهم الباب ، صرت وحيداً لا يؤنس وحدتى إلا صرصار أحمر مات بعد أيام وتركنى لوحدتى تماما .. وفى كل يوم كنت أشعر أنهم سوف يأتون ويعتذرون وهم يضحكون ، ويقولون أنها مجرد مزحة مجرد مداعبة . أليسوا أصدقاء . ؤلم نكن نفعل مثل هذا ؟ ألا تذكر عندما وضع بهجت الملح على اللبن وقال أنه سكر ؟ أو عندما سرق الأحذية كلها ووضعها فى البلاعة .. ألم نضحك يومها ونحن نسير حفاة على أرض الشارع .. كنت كل يوم عندما أسمع مفتاح الباب يدور فى يد الحارس أتوهم أنهم جاءوا لكى يقصوا على كيف صنعوا هذه الدعابة .. حتى عندما كانوا يأخذوننا إلى التحقيق ، كنت أبتسم وأنا أنظر إليهم وهم يكيلون لى اتهامات خرافية لم أتصورها فى حياتى ، أليس هذا مزاحاً ؟ .. أنا أحاول أن أقلب الموازين وأى موازين ؟ اشتراك فى جماعة مناهضة ؟ . . أى جماعة تلك ؟ .. ألستم معى فى هذه الجماعة . . الآن تعذبوننى ؟ .. أنا من ؟ أيها الأخوة الأصدقاء .. لم أفهم شيئاً حتى تلك العلامات المرسومة على جسدى لم أكن أصدقها ، .

ورأيت أخاديد سوداء عميقة على ظهره ، خلع أرديته وأصبح عاريا ، كان جسده ضئيلا ، صغيراً متهالكا .. وكان كل جزء من جسده عليه وشم العذاب ..

وقضينا الليلة فى الحديث . فى الصباح قال :

— سوف أذهب لحضور الامتحان .

وانصرف .

عندما عدت إلى الحجرة فى المساء ، كانت قد اكتظت بالأصدقاء وكانوا يثرثرون ، والبعض منهم يأكل ما فى صناديق طعامى . جلست بينهم . لمحته قادما ، جلس فى صمت . نظرت إليه كان أشد شحوبا ونحولا عما رأيته بالليل ، وعندما سألته عن أخبار الامتحان قال :

ــ وجدت مكاني قد احتله آخر .. وفصلوني .

دارت أكواب الشاي ، وبدأ النقاش حول حقيقة الكون ، كنت عازفا عن المناقشة ، وكان هو منزويا في صمت ملتصقا بالجدار ولم يحاول أحدهم أن يوجه إليه حديثه ، بل لم يحاولوا التعرف عليه ، وكأنه غير موجود . راحوا يتندرون بمراقبي لجان الامتحانات ، كل منهم يحكي قصة مهارته واحتياله على المراقب .. وعندما انتصف الليل ، أردت الخروج من الحجرة . كنت أشعر بالملل . حديثهم المعاد والمكرر ظهر لي مملا أكثر من اللازم ، تحركت نحو الخارج . اعترضني أحدهم وسألني :

ــ كيف تفسر لنا حصولك على أعلى التقديرات وأنت لا تذاكر مثلنا .

كان سؤاله مباغتاً . استدرت ورحت أنظر إلى عيونهم .. كانت تبرق ، العيون تبرق في وهج ، لكزني آخر :

ــ أي سر تخفيه عنا . تلهو معنا ، تسهر الليالي في المسامرة وتظل مثلنا طول العام لا تفتح كتابا .. ثم إذا بك تحصل على تقدير أعلى من الجميع .. هه .

حاولت أن أسبه . أو آمره بالصمت ، أنا زعيمهم إنهم دوما يطيعون . أنا أحركهم كما أريد ، قال ثالث وأنا مازلت أفكر في طريقة حسنة للتصرف ، قال:

ــ أهلك مثل أهلنا . غريب في المدينة مثلنا . طالب علم فقير .. ومع هذا عندما نحضر نجد لديك خبزا نأكله .. دوما نجد عندك طعاما .. من أين لك ؟ وكيف حصلت عليه ؟

نظرت إليه فإذا هو قد انزوى متلاشيا في الجدار . عدت ونظرت إليهم فإذا بهم عيون تتوهج . تلتف بي . تحاصرني . قال رابع :

ــ طعامك جاهز . وملابسك نظيفة . ويفوح منك رائحة الطيب . وتبدو سعيداً دوما ونحن لسنا كذلك . جوعى . ممزقي الملابس . تفوح منا رائحة العطن . أعقبه خامس :

ــ تأمرنا ونحن نطيع . تسبنا ونحن نسكت . تهزأ بنا ونحن نضحك .

أى سحر تخفيه أيها الشرير أخبرنا كيف تبدو باسماً ونحن نئن من الشكوى بماذا تنفرد علينا .

يا إلهى كيف جاءتهم الشجاعة كى يوجهون لى كل هذه الاتهامات ، طعامى تأكلون وحجرتى تسكنون ، ومائى تشربون . وبأمرى تؤمرون . وفى وجودى تشعرون بالحماية . كم مرة دافعت عنكم . كم مرة كنت لكم الملاذ . بصدق نجوتم ، وبكرمى أنقذتم ، وبشجاعتى رفعتم رؤسكم عاليا . وهنا عندى تجدون العلم والحب والمرح والسعادة والطعام . . أنا مثلكم ، ولكنى أعيش على المبادىء . .

لم أستطع أن أقول كل هذا ، نظرت إليه . كان نائما . يرتعش جسده بشدة ، رجوته العون ولكنه لم يستمع ، قال سادس :

— أنت عميل الحكومة وتندس بين الطلبة وتشى بهم .

متى أفعل هذا وأنا معكم طوال ليلى ونهارى ؟

قال سابـــع :

— بل أنت ضد الحكرمة . تعمل ضدها وتريد أن تسقطها ولك على هذا أجر تتقاضاه .

صاح ثامن :

— بل هو جاسوس أطلقه مدير الجامعة ليفرق بين الطلاب .

— بل هو عميل دولة أخرى تعمل ضدنا .

زعق تاســـع :

— هو لص ، سرق منا . . سرق منا . .

أكمـــل عاشر :

— القناعـــة . والكرامة . جعلنا نبدو عرايا رأينا أنفسنا بجواره غرق فى البؤس والمرارة والحرمان . .

ونظرت فإذا بهم عيون ، عيون تبرق بشدة . تتوهج تقترب منى ، وراحوا يهاجموننى . كل منهم يرمينى بتهمة ، كذاب . منافق . مخادع . لص . قاتل . شرير جبان . حقود . حسود . نمام . .

ـــ كفى !

صرخت بأعلى صوتى ، استمدت بعض الثقة . ورفعت يدى ملوحا .

ـــ أخرجوا من حجرتى . أخرجوا جميعاً .

وخرجوا ، كانت العيون ما تزال تبرق فى الظلمـــة . كانت تترك أثراً من اللمعان فى الهواء الأسود . أغلقت الباب ووقفت أسنده بظهرى .

كان هو لا يزال قابعاً يرتعش بجوار الجدار ، عندما خلت الحجرة . وقف وهو يحاول أن يتماسك قال وهو يخفى إرتعاشة يده :

ـــ سوف أسافر ، أشتاق إلى أبى وأمى ، سحب يده بسرعة وانطلق . .

وعندما جلست أقرأ فى الكتاب . كانت العيون تبرز من خلال الكلمات وتبرق . وقضيت الليل ساهراً ..

فى المساء . جاء ، كانت الحجرة خالية لم يأت الأصدقاء . نظر حوله وابتسم فى مرارة . جلس . سألته عن الأهل . قال :

ـــ أمى تزوجها رجل آخر بعد أبى الذى مات .

ـــ وماذا ستفعل ؟

رفع وجهه . كان لا يزال يرتعش . ولكن الخوف قد تلاشى . وظهر لى أنه لم يعد بشراً . كان يبدو لى مثل الثعلب . يستعد للانقضاض . قلت فى حسم :

ـــ يمكنك أن تنام هنا حتى تجد لك مكانا .

قال فى هدوء :

ـــ سأفعـــل

قلت بصوت مرتفع :

ولكن يجب أن تبحث لنفسك عن عمل .. وعن مأوى .

لم يجب . كان قد نام ..

في الصباح . كان الجو حارا . والطريق إلى الجامعة طويل ، والكآبة تسير معى . وقدمى اليسرى تؤلمنى . واصلت السير بصعوبة حتى الجامعة . وعندما وقفت وسط الطلاب هالنى الصمت الذى يسيطر عليهم . انطلق الناقوس معلنا بدأ وقت الامتحان . اندفع الطلاب إلى المقاعد . جلست مهموداً على مقعدى كانت مادة الامتحان سهلة بالنسبة لى . شعرت بالسعادة وأنا أقرأ الأسئلة بعينى . أسرعت أدون إسمى ورقمى . أخرجت بطاقة الجامعة كى أكتب رقمها . جاء رجل مع المراقب وابتسم وهو يرجونى رؤية البطاقة . لم يكن لدى الوقت لكى أنظر نحوه ناولته البطاقة بيدى اليسرى . ورحت باليمنى أجيب . ابتعد الرجل ولكنه سرعان ما جاء ومعه آخرون . التفوا حولى . وضع أحدهم مسدسه فى أذنى . همس آخر :

— قم معنا دون مقاومة .

عندما شعرت بملمس الحديد البارد على أذنى . تنبهت إلى ما حولى . كانوا قد أحاطوا بى . كل منهم يمسك بى من جانب . صرخت .

— والامتحان ؟

لم أسمع جوابا . انتزعونى من فوق المقعد . كان قلمى لا يزال فى يدى والورقة البيضاء مفروشة على المائدة . وتلال من العيون تتساقط حولى . عيون تبرق . تتوهج . تحيط بى . تسبنى . عيون الأصدقاء جميعهم .. جميعهم أصدقاء .

• • •



فجأة وجدت المرآة أمامى ، انشق منها شخص آخر ، اقتربت وتحسست ملمس المرآة الناعم ، شعرت بالبرودة . واهتزت يدى . تلفت حولى فلم أجد أحداً معى . عدت أنظر إلى المرآة . كان الشخص الآخر لا يزال يقف . تبدو عليه الدهشة ، ملامح وجهه جامدة تميل إلى السمنة ، حاولت أن أدقق النظر ، ولكنى لم أصل إلى قرار . . هل هذا الشخص هو أنا ، وهل أنا لا أعرف ملامحى إلى هذه الدرجة . تذكرت ملامحى التى أحتفظ بها داخل عقلى . قارنت بين ما أراه منعكسا فى المرآة وبين تلك التى اختزنتها فى عقلى ، شتان بين الإثنين . تلك المرسومة على المرآة ، جامدة الوجه ، تبدو قطعة من الحجر الجيرى أما تلك التى أحتفظ بها لنفسى فى نفسى فهى لإنسان يبتسم . طيب القلب ودود . على وجهه تبدو علامات كثيرة تدل على وسامته أما تلك التى تلطخ بها وجه المرآة فهى قاسية التعبير باردة القلب .. صرخت لست أنا أنت أيتها الصورة أنا لم أزل أنا ولن تخدعنى مرايا العالم كله . أنا ما زلت ذلك الطفل البرىء ، ذو القلب الطيب والحظ السيىء .. أنا هنا أيها الوحوش ، لم أزل أتنفس . أعيش . أتحول فى حرية . آكل حتى أشبع . أشرب حتى أرتوى .. لن تستطيعوا خداعى .. صرخت ، وقعت على الأرض ، جاءت ابنتى . ابتسمت فى وجهها فغدا يوم الزفاف ، مدت إلى يدها . رفعتنى ، اعتدلت . قلت معتذراً :

— تلك السجادة الملعونة .

لم تعلق ابنتى ، قادتنى إلى الغرفة ، أجلستنى ووضعت بين يدى الجريدة وانصرفت . السطور غائمة تعلو وتنخفض ، تتلون . تصبح لها ظلالا . أحاول أن أقرأ ماهو إسمى محفورا فى وسط الصفحة ، لم يكن إسمى ذلك الإسم المنقوش ، إنه إسم ذلك الشخص الذى كان فى المرآة ، لن يخدعونى به ثانية . قلت لهم فى الجريدة .. لن أكتب ثانية إذا وضعتم إسمه ، إنه يحول كلماتى إلى خناجر مسمومة .

وأنا لن أقبل ، لقد تحررت من كل القيود . سأحاول أن أثبت لكم أنى برىء ، طاهر ، ذو قلب طيب ، ولكن ذلك القرد الضخم الذى تضمونه بدلا منى ، لن ينفعكم .. وجاءت ابنتى بكوب من الليمون البارد ، أنا أحب الليمون . كنت أجلس طول اليوم فى حديقة الليمون لكى أحفظ مقررات الجغرافيا وأقضم حبات الليمون .. كان نابليون يحلم بتكوين إمبراطورية فى الشرق ، وأقضم ليمونة صفراء . يقول داروين أن نظرية الارتقاء هى .. وأقضم ليمونة خضراء عندما تضع محلول الكلوريد صوديوم على .. وأقضم ليمونة أخرى .. إشرب يا أبى . من ؟ هذه الفتاة تناديني بأبى ، كيف أكون أباها وهى فى مثل سنى ، .. أشرب الليمون فيه شفاء للناس مثل عسل النحل ، والنحل يقرص ولكن قرص النحل مفيد ، أما الدبور الأحمر فهو يلدغ بشدة . كم دبوراً يلدغك يا غلام . كثير . . كثير جدا ، سقطت الكوب على الأرض وابتلت ملابسى . شعرت بالصداع ، عندما أبلغ الخمسين من عمرى سوف أستقيل ، وأجلس فى البيت . بل سأعود إلى قريتى وأجلس على حافة النيل فوق الحجر الأبيض بالقرب من المكان الذى تجتمع فيه فتيات القرية ، يضحكون ويتغامزون . وأنا أنظر إليهن وقلبى يدق دقا عنيفا وعندما يذهبن أشعر بالراحة ثم أشعر بالخواء ، وأتمنى أن يعدن ثانية ، وفى اليوم التالى أعود وأنا أجلس على الحجر الأبيض فى انتظار الفتيات ، وهن يتجمعن ينظرن إلى وأنا أنظر إليهن ، نتبادل النظرات . هن يضحكن وأنا أرتعش . أرتعش من البرد ، ذهبت إلى الحمام وساعدتنى ابنتى فى إبدال ملابسى . زفافها غداً ، العريس طيب القلب يقول لى يا عمى ، وأنا لست بعمه ، ولكنى أتقبل منه هذا اللقب . من يقول لى يا عمى أعطه ابنتى يتزوجها ، ابن أخى بعيد . مسافر إلى أوربا ولكنه سيعود . وعندما يسألنى عن ابنة عمه سأقول له أنها تزوجت وذهبت مع زوجها . ولم يبق لى فى البيت إلا أنا .. أنا وحدى .. سأتعلم كيف أتكلم مع نفسى كنت أضحك عندما كان جدى يقول دعونى وحدى أريد أن أخلو بنفسى ، كيف يخلو بنفسه ونفسه معه دوما ؟ .. الآن عرفت السر ، فأنت تنقسم إلى قسمين أنت .. وأنت ، أنت الأولى هى أنت ، أما أنت الثانية فهى أنت الآخر . وأنا

الآن ينقسم إلى اثنين . رأيت ذلك فى الصباح . الأول كان فى المرآة حيث وقفت أنظر ، والثانى هو أنا الذى نظر فى المرآة وشعرت بالصداع ، أجلستنى ابنتى على المقعد المجاور النافذة وضعت بجوارى راديو أحمر اللون ، كان الراديو يقول كلاما متلاحقا بسرعة لم أفهمه . ولكنى تخيلت أنى فهمت ورحت أهز رأسى فى رتابة، قالت ابنتى .. إنهم يعيدون أحاديثك القديمة قلت : نعم . عادت وسألتنى ومتى تسجل لهم أحاديث جديدة ضحكت . لأن الذى يتحدث فى الراديو هو ذلك الرجل الآخر الذى يشبهنى ولست أنا . فكيف أسجل لهم جديدا وأنا لم أقل لهم قديما . ذهبت ابنتى وعادت بعد قليل وألقمتنى الدواء . الدواء له رائحة . يجعل جسدك كله له نفس الرائحة . ابتلعت الدواء وقلت أريد كتابا .

حروف الكلمات باردة . جوفاء . لا معنى لها . أحيانا كانت الكلمات ترقص وتغنى . وتبوح بالأسرار . ولكنها الآن ثقيلة . شاخت . أصبحت مثل حبات الزلط . تلمع فى ضوء الشمس ولكنها لا تقول شيئا . صماء مثل الزلط أيضاً .. الورق بارد .. قالت ابنتى سوف أذهب لأعود بابنى من المدرسة .. قلت نعم .

.. ذهبت إلى المدرسة . قال لى الناظر أمدد يدك فمددتها . قال لو تحملت كتب السنة الأولى سوف تلحق بالسنة الأولى . أما إذا لم تتحمل فإنك ستلحق بالروضة شددت عزمى ونظرت إلى أبى . ألا أريد أن أذهب إلى الروضة . أريد أن ألتحق بالسنة الأولى الابتدائية حيث أرتدى البدلة الكاملة وعلى رأسى الطربوش الأحمر. وضع الناظر كتابا ثم كتابا . ونظرت إلى أبى وتماسكت حتى وضع آخر كتاب وقال: أنت الآن بالسنة الأولى .. ضحكت وذهبت مع أبى .

وظللت عاما فى المدرسة . فى السنة الأولى . أجلس فى المقعد الأول وأحملق فى المدرس ، لا أستطيع أن أكتب فأنا لم أتعلم حروف الكتابة ، أحفظ فقط ، أعى كل كلمة يقولها وأخذتها فى رأسى ، كلما سأل عن شىء قاله ، أعيد له ما قاله بالحرف الواحد ، ولكنى أظل جامدا فى مقعدى ومن حولى يكتبون ، حاولت

أن أتخيل الكتابة أتصور فى عقلى أشكال الكلمات ، ماذا تكون عليه تلك الكلمات التى أحفظها بعد أن ينطقها المدرس ، والمدرس لا يهتم بى إنها مدرسة خاصة من يدفع يدخل ، ومن يدخل عليه فقط أن يجلس ساكنا ، فالضرب مباح ، والمدرس لم يؤهل لما يقوم به ، إنه أيضاً ساخط على حظه ، والتلاميذ كبار السن فاتهم الميرى ، وأنا جالس أبحلق ولا أعرف الفرق بين الألف وكوز الذرة كما يقول مدرس العربى .

وانقضت السنة الأولى ، ونجحت ، نقلونى إلى السنة الثانية وأنا أيضاً لا أكتب إنهم يكتبون الإملاء فى حصة العربى ويتنافسون ، ويكتبون الإملاء فى حصة اللغة الإنجليزية وأيضاً يتنافسون ، ويحلون مسائل الحساب ويرسمون الخرائط ويكتبون . . إنهم يكتبون كثيراً .. كثيراً .

انظر يا جدى لقد أعطتنى الأبلة عشرة على عشرة ، وقالت لى أن خطك جميل ، ابتسمت وأنا أنظر إلى يديها وهى تمد بهما الكراسة ، قالت ابنتى دعى جدك الآن فهو مشغول ، صاحت الطفلة وتشبثت بمقعدى ، إنها تريد أن ترينى خطها الجميـــل .

خطها جميل ، منقوش بالألوان الحمراء والصفراء والخضراء مثل كتاب الولد الأشقر ، الذى جاء إلينا من البندر ، والتحق بالسنة الثانية حيث كنت ، وجلس فى آخر الصف وتحدث مدرس الدين عن الصراط المستقيم وكنا فى صمتنا مذعورين خائفين من السير على الصراط ومدرس الدين يشرح ويزيد ، وقلوبنا وجلة نكاد نبكى من الخوف كيف نسير على صراط مثل الشعرة لابد أننا هالكون فى النار ، وإذا بالولد الأشقر يسأل :

— هل ينجح بهلوان السيرك الذى يسير على الحبال فى الوصول إلى الجنة ؟

انطلقنا نضحك رغم صمت مدرس الدين ، إلا أن شجاعة الولد الأشقر فى طرح السؤال جعلتنا نخرج من هذا الخوف المطبق على نفوسنا .. جدى تعالى لكى تلعب معى .

وذهبت مع الولد الشقى ، شعرت أنه فجر فى نفسى عالما فسيحا بسؤاله ودخلت البيت ، كانت هذه أول مرة أرى فيها بيتا وفقا للنسق الافرنجى .. ليلى شقيقة الولد الأشقر ، ليلى أحببتها ، جننت بها ، أركبتها الحمار ، وعلمتها اللعب بالنحلة والدبور ولعبة النطة والجرى خلف تور الساقية ، وكيف تتشعلق فى النورج . . جريت معها وجرت معى ، وردة حمراء يفوح منها رائحة الربيع .. ولكن أنا لا أقرأ وهى تكتب إسمى فى كل مكان .. تكتبه على التراب ، وعلى جدران البيت ، بل تكتبه بالأزهار التى تجمعها وتشير بيدها نحوى .. إسم حبيبى .

لابد أن أكتب مثلها ، لابد أن أقرأ مثلها ، لابد أن أكتب إسمها فى كل مكان .. ليلى ..

ابنتى تضع طبق الشوربة أمامى ، تحيط رقبتى بفوطة بيضاء تضع فى يدى الملعقة ، تضع ابنتها بالقرب منى ، تضع فوطة بيضاء حول رقبتها ، تقرب منها وعاء الشوربة تعطيها ملعقة صغيرة .. أنا أعرف كيف أمسك بالملعقة .. ليلى علمتنى أول مرة سقطت الملعقة على الطبق ، وانكب الطبق وسقطت الملوخية فى حجرى ضحكت ليلى وتورد وجهها وصار أحمر اللون ، اقتربت منها مغتاظا ، قربت وجهها الملتهب من وجهى وجـــدتنى أقبلها ، شعرت بلسمة حارة فى فمى ، صاحت إبنتى .

— انتظر يا أبى .. الطعام ما زال ساخنا .

لم أذق أجمل من هذه القبلة طوال حياتى ، أين أنت يا ليلى ربما تتذكرين هذا الغلام الفلاح .. وربما لا تذكرين شيئا .

— خذ هذه الكتب إنها هدية لك واعطنى النبلة .

أخذت الكتب ، وأعطيته النبلة وعلمته كيف يصطاد العصافير ، ذهبت إلى البيت وأغلقت على نفسى باب غرفتى ووضعت لمبة الجاز بالقرب من الكتب وجلست ، أقلب فى أوراق الكتب الملونة التى أخذتها من الولد الأشقر ، ها هى

حروف الكلمات ، وهاهى الكلمات والصور تبرق فى ألوانها الزاهية .. إنها صور الحيوانات ، بعض الحيوانات بل أكثرها أصدقائى ، الحصان صديق .. إنه أدهم ، أبى سماه أدهم ، وأنا أركبه .. أجعله يقف بجوار نافذة المندرة ثم أصعد على النافذة حتى أصبح فى مستوى ظهره وأقفز فوقه وأضع قدماى حول عنقه وأقول له .. إجرى يا أدهم ، فيجرى أدهم .. إنه حصان .. ثم هذا جمل ، والجمل يخشاه الرجال أما أنا فلا أخشى الجمل ، إنما أجلس على ظهره وأحياناً أجلس بجوار رأسه وهو يمضغ الطعام ، وكثيراً ما داعبت أذنيه ، إنه جمل ، وذلك حمار ، وهل أنا لا أعرف الحمار .. ثم ذلك كلب مثل كلب تيجر ، إنه الوحيد فى قريتنا ، كلب يشبه الجحش أركبه أيضاً ، لا يفارقنى مطلقا ، حتى أننى عودت ليلى على وجوده معنا . لقد أنقذ حياتى ، عندما دفعنى العجل إلى الترعة واندلقت إلى الماء غائصا ، فإذا بتيجر كلبى الحبيب يهب لنجدتى ويسحبنى من الماء ويجرنى حتى أجلس قاعداً على حافة حقل البرسيم .. إنه كلبى .. وتلك الحيوانات الأخرى أعرفها أيضا واهتديت إلى طريقة أن أرسم حروف الكلمات أسفل الصور فى ورقة حروف الكلمات الخاصة بالحيوانات ، هذا هو حصان وهذا حمار .. إن الحرف الأول فى هاتين الكلمتين متشابهان .. وشعرت بالسعادة ..

— أبى إنك لم تأكل والطعام سيبرد .

ضحكت .. وضحكت ابنتى ، لقد اهتديت إلى معرفة حرف من حروف الكلمات رحت أبحث عنه فى كل الكتب ، لقد تعلمت أول حرف ، حبيبتى ليلىء أول حرف ، ثم أحرف كثيرة أخرى ، أذن الفجر وأنا ما زلت أبحث عن الحروف أرسمها وأجمعها وأفرقها . لقد توصلت إلى السر .. سر الكتابة ، مفتاح المعرفة .. ليلى .. أنظرى ها أنا قد كتبت إسمك على الورق .. تعالى لكى أكتبه بالأزهار .. ليـــلى .

— أبى ، ماذا بك .. إنك تضحك .

وضحك مدرس العربى ، لقد شاهد معى كراسة وقلماً ، واندهش عندما بدأ فى الإملاء ورآنى أنحنى على الكراسة .. لم أستطع أن ألاحق مدرس العربى .. لكنى كتبت .. أحرف مما قال .. ثم كلمة ثم كلمتين وأخذ الكراسات ومن بينها كراستى .. شعرت بالخوف ، لن أغفر لنفسى أبداً ، إننى أضع نفسى فى موقف حرج ، عاد المدرس وهو يبتسم وقال داهشاً :

— من علمك هذا ؟

لم أجب ، رجوته ألا يضربنى .. ووعدته بالمزيد .. كانت الصفحة تكاد تكون بيضاء إلا من كلمتين .. ووجدت كلاما بالأحمر .. فى اليوم التالى .. والرابع .. والخامس زادت الكلمات ولكن ليلى سافرت .. قالوا إنها لم تعد صغيرة حتى تسير معك فى الشوارع وتذهب معك إلى الحقول .. بكيت ، مزقت الكتب الملونة ، أقسمت أن أترك الكتابة .. رحت أهيم فى الحقول سمعت فى أذنى دوى كلمات .. أسمع الكلمات ثم أهمس بها .. أحسست بالراحة .. عدت لكى أرسم الكلمات على الورق .. حاولت أن أخطها .. حاولت .. حاولت ..

— أبى .. لك حديث فى التليفزيون .

لم أعد أطيق ، رسمت كل الكلمات ، ونجحت ، ولكن ليلى لم تعد ، سافرت وقلت فى كل مكان أنا أحب ليلى .. كتبتها بكل الحروف بالعربية والإنجليزية والفرنسية وكل اللغات .. ولكن ليلى لم تعد .

— أبى .. إن ما تقوله فى حديثك رائع .. رائع .

نعم ، أنا حاولت . صاح مدرس العربى :

— لم يحدث هذا من قبل .. كيف اهتديت فى يومين فقط أن تتعلم الكتابة، ثم صاح : أنظروا يا أولاد ها هو قد علم نفسه ..

كانت زوجتى تقول إنه علم نفسه ، وكان زملائى يقولون أنه علم نفسه ، وكنت دوما أتساءل من علم من ؟ .. أى نفس هذه التى تعلمت وأى نفس هى التى علمت ؟.

اقتربت صغيرتى وقالت :

— جدو .. ارسم لى شجرة .

الشجرة كانت عالية ، وثمار التوت تبرق فى وهج الشمس ، وليلى تتلمظ فى اشتهاء ، إصعد وآتى لنا بالتوت ، وشعرت بالخوف .. كيف أصعد إلى أعلى ، أنا لم أتعلم صعود الأشجار وتسلقها ، أصدقائى يجيدون تسلق الأشجار وأنا أجيد قيادتهم سرعان ما أكون الزعيم حتى ولو كانوا جددا ، بعد فترة وجيزة أستطيع أن أجلس والأولاد يقومون بالعمل ، ليلى بجوارى وأنا جالس أبتسم وأصدر الأوامر .. ولكن الآن لا أحد معى سوى ليلى . وليلى هى التى تأمرنى .

— إرسم شجرة يا جدى .

— تسلق هذه الشجرة وأحضر لى التوت .

اندفعت ، كان الجزع أملس ، حاولت أن أبتكر طريقة غير تلك التى يتسلق بها الأولاد الأشجار ، إنهم يعقدون الجلباب ويكاد الواحد منهم أن يكون عريانا كيف أصنع هذا ومعى ليلى ، .. يجب أن أصعد وأنا أرتدى كل ملابسى ، ويجب ألا أسقط وصعدت ، جلست على أول فرع صادفنى ، ورحت أتنفس حتى أستعيد كل قواى وأنا أتظاهر بالفرجة من هذا المكان ، وواصلت الصعود .. صاحت ليلى فى جزع :

— لا تصعد أكثر .. أرجوك .

حاولت الصعود ، بمجرد التظاهر بالمحاولة ، كى أبرهن لها على شجاعتى ، فعادت تصيح فى توسل :

— أرجوك .. من أجلى لا تصعد أكثر .

تظاهرت بالانصياع لأمرها ، سألوا أبى زيد عن الشجاعه قال : أن تضع إصبعك فى فمى وأضع صبعى فى فمك ، ونعض بالأسنان على الأصابع ، وكل منا

يتألم ، وكل منا يجز بعنف من صبر حتى النهاية يكون شجاعا . .

— ليست هذه شجرة يا جدى .. أنت لا تعرف الرسم .

وجذبت الفرع الأصغر ، وذقت طعم التوت اللذيذ وشعرت بقيمة محاولة الصعود إلى أعلى الشجرة ، إن أحلى ثمرة توت تلك التى فى أعلى الشجرة ، وبدأت أجمع التوت . .

وجمعت كل التوت ، من أعلا الأشجار وعدت .. ولكنى لم أجد ليلى ، أين أضع كل هذا التوت ، ولماذا جمعته ماذا أصنع به .

— ضعه هنا يا جدى .. هذه شجرة تفاح .

أخذت ابنتى فى إعداد الفراش ، قالت فى حزم :

— دعى جدك لأنه يريد أن ينام .

أنا لم أرد النوم . لا أطيق النوم ، دعونى أتنفس فى حرية ، لقد نمت كثيراً جـــداً .

قالت الصغيرة :

— سأحكى لجدى حدوتة حتى يستطيع النوم .

ضحكت ابنتى وقالت :

— سوف يكتبها فى كتاب وتخسرين أنت حق التأليف .

قالت ليـــلى :

— من علمك كل هذه الحواديت .

— لم يعلمها لى أحد .

— ولكن من أين تأتى بها ؟

— من عقـــلى .

— أنت .. كذاب .

شعرت بالألم أسفل رأسى ، كلما وضعت رأسى على الوسادة أشعر بألم هائل ما تكاد تسقط رأسى على مؤخرتها حتى أغوص فى عالم كابوسى مؤلم ، يجب أن أعتدل لا أستطيع أن أفعل ذاك وحدى ، يجب أن يساعدنى أحدهم ، كنت دوما أخشى الوحدة ، وكنت دوما فى حاجة إلى إنسان بجوارى ، كانت ليلى تتهمنى بالتخريف .. لم تصدق أننى آتى بهذه الحواديت من عقلى .. جلست على حافة القناة وقالت :

— احكى لى عن هذا الحمار حكاية لم أسمعها من قبل وحكيت ، وضحكت عندما حكيت لها ، صاحت وهى تقول :

— لماذا لا تكتب هذه الحكايات .. أنت مؤلف .

ووقفت أمام مأمورة الضرائب أحاول عبثاً أن أدفع عن نفسى تهمة الكسب من التأليف ، كيف أربح من مجرد تأليف الكتب كيف تتصورين أن المؤلف يربح نقوداً ، ألم تسمعى من قبل المثل الذى يقول ، من أدركته حرفة الأدب مات من الجوع والظمأ ، ضحكت مأمورة الضرائب .. وغمزت لى بعينها فى سخرية .. وكتبت فى المحضر أرقاما . . وقالت اكتب إسمك هنا . . وكتبت . . ولكنها قالت يجب أن توقع بإمضائك المعروف .. ليس لى إمضاء معروف .. إننى أكتب إسمى فى كل مرة مختلفاً عن المرة السابقة .. حاولت أن أكتب إسمى بشكل ثابت ولكنى دائما أفشل .. ذلك لأننى لم أتعلم القراءة والكتابة أننى فقط أتخيلها وأرسمها .. مجرد أن أتصور حروف الكلمات وأرسمها كما أتخيلها لهذا فإننى أتخيل حروف إسمى فى كل مرة تخيلا مختلفاً .. لأننى لست أنا باستمرار . . فأنا أحيانا أنا .. ثم أحيانا أخرى أنا الآخر . .

— أبى :

نظرت إليها ، كانت على وشك البكاء ، زفافها سيكون غداً قلت مبتسما حتى أشجعها على الحديث :

— نعم يا ابنتى .. أنا أسمعك .

قالت :

— زوجى ..

ثم أجفلت وتراجعت تخيلت بقية الكلمات ألم أقل لكم أنى أتخيل كل شىء ، قلت مكملا :

— هو أحق بك منى يا ابنتى .

عادت وهى تمسك بيدى فى حرارة ، قالت :

— إنه يحبك يا أبى .. وقد تحمل كثيراً .

— أعـــرف .

— منذ شهر وأنا أكاد أقيم معك .

— نعـــم .

— هو يتحمـــل .

كانت حفيدتى قد نامت ، عندما دخل زوج ابنتى متجهما ، تظاهرت بالنوم لحظة دخوله ، ولكنى راقبت وجهه وهو يقف صامتا تجاهى ، قالت ابنتى :

— أبى طلب فى إلحاح أن أذهب معك .

قال زوج ابنتى :

— ولكنه لا يزال مريضا وهو بحاجة إليك .

قالت ابنتى وهى تنظر إليه :

— هو الذى طلب .

عادت إليه حرارة الحديث عندما قال :

— إذا كان هذا طلبه فنحن جميعاً رهن إشارته . . هيا بنا فأنا فى شدة الشوق إليك .

انحنت ابنتى وقبلتنى على خدى ، أطفأ هو نور الحجره وسحب ابنته التى تحاول أن تستيقظ وهى تصيح :

— أريد أن أنام بجوار جدو .

قال زوج ابنتى :

— جدو نام ولا يريد أن يوقظه أحد .

رفعها واندفع خارجاً ، تلكأت ابنتى ، ثم استدارت خارجة ، وأغلقت باب الحجرة ، ثم سمعت صوت الباب الخارجى يغلق ، وهدير صوت السيارة يعلو ثم يبتعد وساد السكون رفعت جسدى ، وخرجت من الفراش وأضأت النور .. تلفت حولى .. رأيت عروسة حفيدتى وقد انكفأت على وجهها أسرعت ورفعتها ثم أرحتها على أحد للقاعد .. ها أنا ذا أعيش من جديد .. أدور حول نفسى ، أتحرك ، أنظر فى المرآة .. لم أجد أحداً سواى أنا الرجل الطيب .. ذو القلب الطيب .. وملامحى تدل على الوسامة .. أبحث عن الورق والقلم ، أين الأوراق .. ها هى الأوراق .. سأكتب من جديد .. وساعتها سوف تعلمون من أنا .. أنا الرجل الطيب أرسل خطابا إلى ليلى .. وسوف تأتى ليلى سريعاً ، لكى نجرى عبر حقول البرسيم .. ونقطف ثمر الليمون .. ونسير فوق قضبان السكة الحديد . ونعبر مزلقان الخضرى .. ونشرب من زير سيدى سالم .. ونتسابق بالحمير .. ونجرى خلف خراف المرعى .. ونصعد متن الأشجار .. نأكل ثمار التوت والجميز .. أنا الرجل الطيب الذى علم نفسه رسم الكلمات .. أكتب لكم خطابا .. أرسم كلماته .. كلمات حب وعشق .. وشكر وامتنان الليل ولكم .. بعد أن تركتنى وتركتمونى أموت وحيداً .. أقصد أعيش وحيداً .

قال لها أنه زهد فيها ، وأن الحياة معها أصبحت لا تطاق ، وقال لها كلاما كثيراً غير ذلك ، كان منفعلا فى غضب زائد ، وكانت فتحة الشرج تؤلمه منذ الصباح حتى أنه لم يستطع قراءة الجريدة فى الحمام كما هى عادته كل صباح ، بل عندما سنحت له فرصة الجلوس فى الأتوبيس وهو ذاهب إلى عمله لم ينتهزها ، وحاول بيعها فى مقابل ابتسامة امتنان من سيدة مسنة . وأحس ببعض الزهو وهو يتلقى نظرات الحسد على كرمه وأريحته ، وهما شيئان اختفيا منذ زحام المدينة ، .. وعندما دخل عليه الساعى بالقهوة ثار ثورة عارمة وطرده بحجة أن القهوة ليس لها مذاقها المعتاد ، واشتبك فى معركة كلامية مع زميله من أجل التوقيع على ورقة ليس لها قيمة ، وأعجبه إحساسه بالنصر عندما أخذ رئيسه بوجهة نظره ، بل اندهش عندما شاهد الرئيس وهو يشد عليه معجبا بهمته فى العمل ، ولكن اختفت من حوله الابتسامة عندما عاد إلى مكتبه ، أحس بعيون الزملاء وكأنها تتفرسه لأول مرة ، بل شعر بوغز هذه العيون فى لحمه . وعاندته « كريمة » - على غير عادتها - عندما حاول أن يتلطف معها .

. . .

لم يكن موضوع المشاجرة معها ذى بال وتصورت هى أن المعركة سرعان ما تنفض عندما يلتهم صدر الدجاجة ويخلط الملوخية بالأرز ويبدأ فى ابتلاعها ، بعدها سوف يصبح كما تعودت أن يكون ، كانت تتمنى أن يسكت أو يكف عن الحديث ، بمجرد أن يسكت ، بعد الغداء سوف تخبره فى هدوء عن سر اختفائها عن مكتبها عندما اتصل بها ولم يجدها ساعتها سوف يرقص من الفرح ويطير بالخبر إلى أمه ثم إلى أشقائه فأخوته البنات سيصبح أباً بعد شهور لقد أحسست بالآلام منذ عدة أسابيع ولكنها تحملت فى تكتم حتى لا يتندر عليها زوجها كما هى عادته فالطبيب دائما يسرق منها الفرحة فى كل مرة تحس فيها بالحمل ، وبعد كلمات الطبيب

يسرع زوجها فى التهكم والتندر ، لا تعرف ما إذا كان راغبا فى الأطفال أم لا ، إنها تسمع منه دائما كلمات تخيفها ، عن الإنجاب والزواج والأسرة ، وأنه ضد كل هذه الارتباطات ولكنها فى الواقع لا تصدق كلماته ، لأن أفعاله تنفى كلماته ، فهو محب لأهله ، ودود مع أشقائه ، يفيض رقة لشقيقاته ، وهو أيضاً محبا لها وفيا لعشرتها ، لقد عاشت معه زمنا حتى الآن وتعرف أنه مثال الزوج الحنون ، . . ولكنه الآن ثائر لا يهدأ ، قررت أن تخبره بأمر حملها وصدقه هذه المرة ، بل وتريه ما كتبه الطبيب ، ولكنها بدلا من أن تفعل ذلك رأت نفسها ترتدى ملابس الخروج ، وعندما وقفت بجوار الباب دفعها لتخرج ، بل أغلظ لها القول وسب أهلها عندما أرادت أن تلفت نظره إلى أسرتها .. دفعها بيديه مرارا .. إنه لم يعد يريدها ولا يطيق وجودها معه . . وخرجت إلى منزل أسرتها .

. . .

أحس هو براحة تسرى فى جسده كله ، شم رائحة الملوخية فانقض على المائدة جائعاً حتى شبع ، تمدد على الفراش ، تأمل سقف الحجرة ، لمح ثوبها المنزلى ملقى على الأرض ، قام مسرعاً ووضعه على الشماعة ، لمست يده بعض ملابسها الداخلية، تحسسها فى لهفة ، ذهب إلى الدولاب وراح يعبث بمحتوياته ، كراسة الحسابات ، خضار باثنين وثلاثين قرشاً وكيلو موز .. رمى بالكراسة ، خطاب من أسوان بخط يده « .. زوجتى الحبيبة سوف أصل إليكم مساء الخميس » ، ياه .. خطاب أسوان منذ خمسة أعوام وهى تحتفظ به ، بطاقة بريد أرسلها لها من دمشق عندما كان خطيبها ، إنها محبة وفية ، أو ربما سيدة كسول أو سيدة مهملة . . كل هذه الأوراق ؟ .. ورقة مطوية بعناية . . ما هذه ؟ .. سندات بنك .. ادخار ألفاً من الجنيهات ، لم تخبره بأمر هذا الادخار ، إنها تواظب على سحب الأرباح ، آخر مرة سحبت فيها الأرباح من البنك أول أمس ، لماذا لم تخبره بأمر هذه الأموال ، لماذا تخفى عنه هذا الأمر ، ما الذى يمكن أن تخفيه أيضاً ؟ ، راح يبحث فى عصبية « سوف أكتشف أمر هذه السيدة ، أتزوجها وتخفى عنى أسراراً ، ربما لها علاقة برجل آخر ، لا . . لا أتصور هذا الأمر هزه هذا الخاطر ولكنه

لم يصدقه ، مجرد خاطر مر برأسه ومع هذا ظل موجوداً حول دماغه مثل ذبابة لحوح ، لم يجد شيئاً فى الأوراق ، كلها أشياء رآها من قبل ، بعض الأشياء التى كانا يشتريانها ثم ينساها هو ، كم كبير من زجاجات العطور ، ملابس داخلية فى أغلفتها وعليها مناديل وميداليات وحافظة نقود ، أوراق من العملة الصغيرة مدسوسة فى زوايا الأدراج شراب جديد له ورابطة عنق ، ومجموعة مجلات أزياء ، وتذاكر طبية كثيرة . أغلق الدولاب وذهب يتمدد على الفراش ، اكتشف أن آلامه لم يعد يشعر بها ، أحس بالحيوية تدب فى أوصاله فقفز من الفراش وتذكر أن سبب مشاجرته مع زوجته كان سبباً تافهاً وأنه زودها . . خرج إلى المقهى وهو يصفر لحنا خفيفا بفمه .

. . .

بكيت أمام أخى الأصغر لاننى كنت أريد أن أبكى ، لم يكن مقبولا أن أترك شقة زوجى. لم أستطع أن أعلل الأمر أمام شقيقى الأصغر وأمام أمى ، قلت إننى لم أتحمل إهاناته التى كتمتها عنكما طويلا ، نظرت أمى نحوى فى ريبة ، قالت أن زوجى لا عيب فيه بل إنه يدللنى أكثر من اللازم ، وأنه تحمل عدم إنجابى بصبر يجب تقديره ، وأن الرجل ربما كان ثائرا بسبب المرض أو بسبب أزمة فى عمله ، ولكن شقيقى لم يتردد أن حسم الموقف وقال :

« سوف أجعله يرى نجوم الظهر » .

لم أصدق أخى الصغير وهو يردد هذه الجملة ، خرج بعد المساء بقليل ، أخى مجرد ضابط حديث التخرج ولكنه كثير الأصدقاء ، دللته أمى كثيراً لأنه الأخير ومع هذا كان رجلا فى تصرفاته ، لم يصادق فى حياته إلا ذوى المناصب ، كان يتحدث عنهم فى بساطة كما تتحدث نحن عن زملائنا فى العمل ، قال أنه على علاقة برجل مهم فى المخابرات ، . . عندما خرج راودتنى فكرة العودة إلى منزلى ، أقصد منزل زوجى ، ارتديت ملابسى وأحسنت هندامى ولكن أمى منعتنى قالت إننى يجب أن أظل يوما أو بعض يوم معها ، وعللت هذا بأنه سوف يزيدنى حباً لزوجى وهو أيضاً ، فكرت فى الأمر ثم قررت عدم الذهاب ،

غمرني الشعور بالسعادة وأنا أتصور لقائى بزوجى بعد غياب يومين ، تذكرت شعورى عندما كان يسافر فى مهمة ، كان اللقاء بعد الفراق ممتعاً ، تحملت ومكثت فى بيت أمى حتى أحصل على هذا اللقاء الممتع ، حضر أخى الأصغر وقال : إنه سوف يلاعب زوجى لإخافته . نهرته أمى بقسوة وطلبت منه فى حسم أن يخبرنا بما فعل وأنها لن توافق أن يزج بزوجى فى ألاعيبه ، قال أخى إنهم سوف يقبضون عليه ويبقونه لمدة يومين فقط وبعدها سوف يعيده هو إلى المنزل حتى يعرف قيمة أهله .

صاحت أمى متوجسة أن ما يحدث الآن لن نعرف له آخر ، أمرته أمى أن يذهب فوراً ويلغى هذا الأمر ، توعدته إن لم يفعل فإنها سوف تطرده من المنزل ، غضب أخى ، كان حزنى على زوجى قد بلغ مداه ، انهرت باكية ، حاول أخى أن يعرف منى الحقيقة ، لم أكن فى حالة تمكننى من الحديث ، ألحت أمى عليه أن يذهب إلى صديقه ويلغيا أمر القبض على زوجى ، حاول أخى أن يشرح لها أن هذا مجرد تهديد ، وأن صديقه لن يفعل شيئا سوى تهديد زوجى ، كنت أستمع إلى حديثهما الغاضب وأنا أتذكره وقد جلس أمام التليفزيون يشاهد برامج الأطفال وسينما الأطفال ، ذهب أخى لكى يخبر صديقه بعدم تنفيذ ما اتفقا عليه ، وداعبنى النوم فلم أشعر به عندما عاد .

• • •

عندما استيقظ فى الصباح ، أو هكذا تصور أن يكون الوقت كذلك ، دق جرس الباب فى رنين متواصل ، استيقظ وأخذ يبحث عن الحذاء المنزلى ، ظل الجرس يدق ، أهمل موضوع الحذاء وأسرع ليفتح ، تدفق ريح بارد أيقظه حملق فى الرجلين اللذين وقفا أمامه ، قال لهما :

— صباح الخير .

لم يردا ، حملق فيهما ثم تفرس فى كل وجه من الوجهين ، لم يتعرف عليهما ، قالا :

— تعـــالى معنا .

عندما استيقظ تماما ، وتنبهت حواسه وأحس البرد والجوع والخوف كان يجلس داخل غرفة شبه مظلمة وكان عقله قد فقد القدرة على الاستنتاج فسقط فى هوة اللا إرادة ، بعد قليل جاءه رجل ضخم وقال له فى أمر :

— تعـــالى .

وذهب معه ، من حجرة إلى أخرى حتى استقر فى حجرة فسيحة مريحة ، أمره الرجل أن يجلس على أحد المقاعد ثم تركه وانصرف ، ظل جالساً مدة طويلة لم يعرف كم الوقت ، كان جلبابه الأبيض القصير المخصص للنوم قد فاته أن يغيره كما أن قدماه عاريتين ، وبلاط الغرفة بارد ، له ملمس يجعله يشعر بالقشعريرة تسرى فى جسده ، الغرفة لا توحى بشيء محدد طمأن نفسه مرارا .

بعد قليل سوف أعرف . الغريب أن فتحة الشرج لم تعـــد تؤلمنى . و . . . دخل رجل آخر وقال له :

— تعـــالى .

وذهب خلفه ، كان جائعاً وخائفاً ، ولكنه تحامل ماشياً من غرفة إلى غرفة ومن سرداب إلى آخر ثم صاح الرجل :

— اجلس هنا .

وجلس هنا ، ولكنه لم يشعر بالراحة فقد كانت هذه الغرفة أجمل من تلك التى كان بها ، انصرف الرجل ، ودخل آخر ، أنيق ، دقيق ، يبدو مثل كبير المفتشين الذى يأتيهم كل عام ، جلس الأنيق بالقرب منه ، فى مواجهته ، قدم له سيجارة وأشعلها له ، ثم سأله :

— سوف تخبرنى بكل شيء .

صاح فى رجاء :

— نعم ، فقط عن أى شيء تريدنى أن أخبرك .

خطف الأنيق السيجارة من فمه فى غضب ، ووقف قائلا :

— لا تتخابث ، نحن نعرف عنك كل شىء . فلا داعى للمراوغة وسوف نرغمك على الكلام . نظر إليه فى ترقب ولكن الأنيق انصرف مسرعاً ، ظل جالساً يفكر عن أى الأشياء يخبرهم ، لو كانت زوجتى هنا لقالت لى ماذا أفعل ، إنها تملك طريقة أفضل للتفكير ، تعودت أن أسألها وهى تجيب ، ثم أفعل ما تقوله ، وأنى أخبرها بما فعلت وكأنه من وحى عقلى ، وهى تبتسم لى وتردد أنى أعد من أذكى الرجال . وأنها لا تدرى ماذا كانت تصنع من دونى ؟ فماذا تصنعين الآن من دونى يا زوجتى ؟ . . أخذ فى البكاء ، كان الخوف يكاد يشله تماماً . والإحساس بالمهانة يطغى عليه ، وتف ولكن أحدهم دخل يستدعيه .

مشى خلف الرجل ، ومن غرفة إلى غرفة ، كان ضوء النيون فى كل مكان ، لم يعد يعرف أين هو . ومتى يخرج . وفى أى وقت هو . بالإضافة إلى سؤال يخنقه ، ماذا فعل ؟ ماذا فعل ؟ وانهار ساقطا مثل جوال الملح حتى أنه لم يشعر بالعصى الغليظة التى انهالت على جسده ، . كل ما كان يشعر به أنه دخل الجحيم ولن يخرج منه . .)

. . .

صاحت أمى فى فزع :

— دخل المعتقل . . فعلها المجنون .

بعدها شعرت أنى أتهاوى ، أحسست بيد أمى . بريق الكشافات يملأنى رعبا ، رائحة المخدر تصيبنى بالغثيان . فقدت طفلى المنتظر ، خرجت من المستشفى وإحساس بالضياع يلفنى . مشيت خلف أمى مثل بقرة لا تملك من أمر نفسها شيئا ، تطلعت إلى المحلات . كان ضوء النيون يبهرنى وأصوات نفير السيارات تتفدغ حواسى . ضحكت عندما رأيت طفلا يتعثر ويسقط . نهرته أمه ورفعته من يده ، تخيلت منظر الطفل وقد انخلعت ذراعه . . لكزتنى أمى وهى تحملق فى وجهى بدهشة ، صاحت :

— أخوكى اتصل بكل أصدقائه .

نظرت إليها ومضيت مسرعة ، لقد أيقظتنى أمى من نوم مخدر ، لو تعرفون كم تعانى الزوجة من افتقادها لزوجها ، إننى لست حزينة ، ولا أستطيع البكاء ، لا أشعر بالألم ، ولكنى أشعر فقط أننى فقدت جزءاً من جسدى من كيانى ، أشعر أننى لست أنا ، أضع يدى على الطعام فلا أحس به ، أبتلعه ولا أتذوقه ، أرقد على الفراش ولا أنام ، صحت فى رعب :

— أريد زوجى .

كان أخى الأصغر يبكى ، وكانت أمى ترتعد من الحزن ، درت حول نفسى ، وأنا أصرخ :

— أين زوجى ؟ أين زوجى ؟ ابحثوا لى عنه ، أنتم السبب ، لم أكن أحب سواه ، لم يكن يغضبنى ولم أغضب منه مطلقا ، كانت مجرد مشاجرة ، أنتم السبب ، فقدت طفلى الذى انتظرته أنا وزوجى عشر سنين ، أنا أريد زوجى . .

حاول أخى أن يفسر لى ، ولكن أمى أمرته بالسكوت ، كان أخى قد فشل فى أن يعرف أين زوجى ، ذهبنا إلى كل الإدارات ، وإلى كل المسئولين . . وأخيراً جلس أخى الأصغر يبكى أخذته فى أحضانى ، وضعت رأسه على كتفى كان شعوه اللامع يهفهف مع تشنجاته ، وضعت يدى على رأسه ورحت أمسح بها على شعره ، وديعاً كان أخى ، وحزينا غارقا فى حزنه ، بكى قلبى على أخى ، حاولت أن أسرى عنه ، جاهدت أن أرفع عنه هذا الحمل البغيض ، ولكنه ظل منهمراً فى البكاء ، اقتربت أمى وحاولت معى ، ولكن أخى كان يكاد ينشق إلى نصفين اندفعت باكية معه وكذلك فعلت أمى ، أخذنا ثلاثتنا نبكى زوجى الغائب الذى لا نعلم أين هو .

. . .

كان يجلس بجوار زميله ، لم يعد ذلك الموظف المهتم بالذهاب إلى عمله فى الصباح بل أصبح فيلسوفا ، نعم فيلسوف ، له العديد من الآراء والنظريات فى الحياة

والكون وأحقية البدائل ، والبدائل جاءت من اختراعه بعد أن ركب العروسة ، وذاق حلاوة النصر على الألم ، لم يكن يخفى شيئا ولم يحاول أن يتظاهر بالشجاعة ، كان صادقا عندما أخبرهم أنه لا يفهم الأسئلة ، وكان صادقا عندما قص عليهم كل شيء في حياته . . حتى تلك الأشياء الصغيرة التي يحتفظ بها الرجل لنفسه ، وكتبوا كل هذا في الأوراق ، وسجلوه على شرائط ، واستمع هو إلى التسجيل ، ولكنهم دوماً كانوا يضعونه على العروسة ثم ينهالون عليه ضربا ، وفي المساء يقف تحت الدش البارد ، ثم يعلق من جديد من قدميه . عاريا يظل معلقا حتى الصباح يتندر عليه الحراس ، يحس بالدوار لحظة ثم يرتاح إلى هذا الوضع المقلوب فإذا عدلوه في الصباح شعر بالدوار يمزق جسده ، وانهار كومة على الأرض ، بعدها رفعونه في الهواء من يديه ، ويقربون أسلاك الكهرباء ، تصعق الكهرباء ملايين الأفكار القديمة في جسده وتعيده في لحظات إلى كائن جديد يستشعر حلاوة الحياة . وكان صادقا عندما قال في شجاعة أنه لم يعد يهمه الأمر ، لقد نسى زوجته تحولت في عقله إلى ملاك من العالم الآخر ، وتحولت حياته السابقة إلى مجرد ذكريات لا تربطه بها مرارة ولا لذة إذا ما تذكرها ، قلعوا أظافره ، وخلعوا له أضراسه ، وضعوا في مؤخرته قضيباً من حديد ، راح ينزف حتى أغماه الألم ، وعندما أفاق شعر بالراحة وفي المرة الأخيرة وضعوه بين التروس ، وعندما أداروها كان جسده ينتفض في نوبات منتظمة ، أما عقله فلم يكن يشعر بشيء كان صافيا وأخذه إلى آفاق فسيحة من الأفكار الجميلة وعندما توقفت التروس وتوقف جسده عن الانتفاضة ، شعر بالحنين إلى الألم ، تمنى أن يرجعوه إلى الصلب من جديد ، أو حتى إلى المقابض الكهربائية ، كأن الحنين الجارف إلى المغطس حيث يظل رأسه تحت الماء فترة يحسبها الإنسان دهراً ، وتتأهب روحه إلى مغادرة جسده ، ويستشرف النهاية ، وما أن يكون قاب قوسين أو أدنى من الموت حتى يطلقون رأسه من الأسر ويندفع الهواء في موجة عاتية إلى صدره ، وتدافع أمواج الهواء حتى إذا أحس بالحياة تدب في أوصاله فإذا بهم يدفعون رأسه إلى

الماء ، وهكذا . . وفى كل مرة تأتى رشفة الحياة بعد الولوج فى الموت كأحلى ما يكون استشعار اللذة ، كان صادقا عندما صارحهم برأيه الحقيق فى كونهم حميرا وأنه كان بالفعل يتمنى موتهم جميعهم بعدما لم يعودوا إلى تعذيبه اللذيذ ، وحرموه من المتعة الحقيقية التى استشعرها فى وجوده معهم ، كفوا عن مجرد الاقتراب منه وتركوه فى زنزانته الفردية حتى الطعام كان يقدم له من كوه صغيرة فى الباب الخشبى ، أحس بالحرمان من سماع الصوت الآدمى حتى ولو كان الصوت لمعذبه ، عند ذلك فكر فى الأمر وتوصل بعد جهد إلى نظرية البدائل ، وهو لا يدرى لماذا سماها بهذا الإسم ومع هذا فهى فى الحقيقة نظرية جديرة بالاعتبار ربما يدرسونها فى الجامعات فى يوم من الايام ، وهدأت نفسه واستراحت ، وأحس أنه تطهر ، وأن جسده أصبح خفيفاً ولطيفا ، وأن روحه صارت محلقة فى عالم فسيح ، وأن عقله تحول إلى آلة ، تعمل فى هدوء ، كل شىء تحول عنده إلى أفكار الطعام ، ومجموعة الصراصير التى تشاركه السكن ، والظلام الذى يسود ، وأصوات رجال تبكى ، وشهقة الموت تسمع فجأة ، وضجيج الضحكات بعد العشاء ، ودقات منتظمة على الجدران ، . . وليل طويل جميل تسرى فيه الافكار منسابة مثل الريح الهادىء تشع بريقا أخاذاً ، يذوب ، يتلاشى . يغفو على صوت ريح الأفكار عندما تشتد ، ثم يصحو فإذا بالعالم كله منبسط أمامه ، وإذا الدنيا راكعة تحت قدميه ، وإذا بجسده يتحول إلى أثير ، « . . يارب السكون لك الحمد ، فى جسدى يكمن شيطان الوثنية . فى روحى خلاص الإنسان . فى عقلى تكمن روح الحب ، يا رب السكون لك الشكر ، نجوت . . نجوت ، . . وفى أحد الأيام قذفوا إليه بزميل آخر ، ثرثاراً أحمق يتحدث عن العدل ، يتحدث عن مدلولات وهمية ، كلمات حمق . جوفاء . بلا معنى . بلا مأوى . يستخدمها الكل ضد الكل ، لا معنى ، أى عدالة تعنى ، عدالة من لمن ؟ أو بمن ؟ ، من الظالم ومن المظلوم ؟ ، من منكم أعدل من أخيه ؟ يا رب السكون هؤلاء عبيدك ، ملكوا تاج الكلمات فراحوا يتباهون ، وما يدرون أنى خلصت من الكلمات . ونظائر الكلمات

وبدائل الكلمات . لك الحمد ولك الشكر تعاليت وتصاغرت الأكوان » .

• • •

لم أعد أفكر فيه ، طيفه أصبح جاثما على كتفى أحمله فى رواحى وغدوى ، أهدهده عندما أنام ، أضع له على المائدة طبق طعام ، أستحى منه عندما أتعرى فى الحمام . أضيق به عندما أرى أخى وهو عائد فى أجازته فقد نقل نفسه إلى أقصى الوادى ، لم يعد يتحمل مرارة كلمات أمى ، ولم يعد يتحمل العتاب المطل عليه من عينى ، لم يعد يطيق فهاجر إلى بلد بعيد ، ويأتى فى الأعياد يرى أمه فى استحياء ، ويقبل يدى فى خجل . ويمسح وجهه فى قلق ، لم يعد أخى الأصغر ذلك الشاب المرح ، بل أصبح كالمنبوذ من نفسه . الحاقد على لسانه ، المستنكر الدائم لعقله . أصبح حطاما يهتز عندما يدق جرس الباب . يرتعش إذا سمع صوت اقتراب الأقدام . ما عاد ضحوكا مثل ما كان . ما عاد أكولا مثل ما كان . ما عاد رجلا كما كان . . هشاما تذروه الكلمات ، وأنا أندفع كإعصار مقبل على سفينة بلا قبطان أقتلعه من فراشه أهزه هزاً ، أصرخ فى وجهه . تظلم عيناه ، ترتعش شفتاه . أختاه لا أعلم أين زوجك . تاه . . ضاع منى طفلى . ضاعت منى طفلتى . تهت فى كومة الكلمات . صارت الحياة بدائل . لم تعد حياتى تمضى على شريطها المرسوم . بل صارت وفق قضبان البدائل . بيت أمى بدلا من بيتى ، وسرير أخى بدلا من سريرى وصوت أمى بدلا من صوت زوجى . . وعندما أسمع نداء أمى فى الصباح بدلا من نداء زوجى . . أتلكأ . تفر العزيمة من جسدى . وأعود لأرتمى فى فراشى البديل لاعنة كلمات تفوهت بها كانت سببا فى قصف عمرى . . ويا ليت الكلمات ما خرجت . .

• • •

كان هو قد توصل إلى أن احتقان فتحة الشرج والتهابها فى ذلك اليوم الماضى من زمن طويل ، كان أول الخيط لما أصابه من فرح ، فقد كان هذا الألم هو أول ما حصل عليه من أوسمة الآلام ، وتذكر بعدها متواليات الأحداث ، الزوجة ،

وبيت الأم ، والشقيق الأصغر و . . ثرثرة الأفواه . وتاه . . لم يستطع أن يحصل على صورة كاملة لزوجته . حاول أن يستحضرها ولكنها لم تطاوعه ، ونام .

كانت كل الصحف تؤكد أن الإفراج سوف يتم ، بل ربما كان قد تم بالفعل ، وكان كل الزملاء ينظرون إليها ، ومحمود أيضاً حملق فيها بحسرة ، كانت قد أعطته فى النهاية علامة مرور ، أفهمته أنها أدخلته إلى عالمها ، عالم البدائل ، صار سعيداً يترقب ، ولكن ما أشيع عن الإفراج كان معناه إغلاق هذا الباب ، وتوقفت عند زميلة كانت دوماً تدفعها إلى الزواج نظرت إليها فى عتاب ، جاء أحدهم وهمس إليها . . خرج . . واندفعت خارجة .

• • •

صار لا يحب الضوء ، وعندما دفعوا به إلى الخارج عمت عيناه ، وغشيتها الظلمة من جديد ، استراح بجوار أحد الجدران ، كان جائعاً وحزينا ، تمنى أن يعيدوه إلى مسكنه فى الداخل ولكن الرجل أعاد دفعه بعنف أشد ، وصرخ آخر فى استياء . لم يملك إلا أن يمضى رغم ظلمة فى عينيه ، واصطدم بجسد إنسان ، كان الجسد حارا مرتعشاً ، خاف وحاول أن يفر ولكن الجسد عاد وتمسك به ، قاومه وجرى ، ظل للحظات غير قادر على التفكير ولكن بعد قليل سمع صوت طلقة نار . . جرى هو إلى مصدر الصوت ، تعثر بجسد آدمى وسقط ولم يعـــد يشعر بشىء .

• • •

عندما وصلت إلى بيت أمها ، كان الخبر قد تمكن من الوصول قبلها ، وكانت الأم تشهق بالبكاء ، وكانت إحدى الجارات تحاول معاونة الأم ، نظرت نحو أمها واندفعت إلى الداخل ، فتحت الأبواب . . كل الأبواب ، لم تجد ما كانت تتوقعه ، أحست بالراحة واتهدت على فراشها ، أقصد فراش شقيقها الأصغر ، ما كادت تهدأ حتى اندفعت الجارة تخبرها بوصول الجثمان . . كتمت صرختها وسألت :

— أى جثمان ؟

بكت الجارة وهى تنطق إسم شقيقها الأصغر .

— لا يمكن ! !

عوت ، صرخت ، بكت ، شقت جيوبها ، لطمت خدودها ، شدت شعرها ، ولكنها أبداً لم تستطع أن تعيد ثانية حياتها هى ، لقد صار الكل بدائل ، مات الصغير ولم يعد الكبير ، وتحولت حياتها إلى بدائل . . وإلى كلمات . . ومن الكلمات ما قتل .

(المـــوت يأساً)

عندما خرجت فى الصباح كانت الشمس مشرقة ، وكان الجو خانقا بالتراب ، والسيارات تزوم وهى واقفة ، لم أستطع السير ، الشوارع تكاد تكون مسدودة بالسيارات الواقفة ، وكذلك أفاريز الشوارع ، وعندما اقتربت من سيارة أجرة ليس بها إلا السائق ، علت أصوات نفير السيارات ، أشاح السائق بوجهه ، لم يحاول أن يستمع إلى ، تركته وأنا أحاول إقناع نفسى بأنه رجل من أهل النار ، وأن يومه سيكون مثل الهباب ، وسوف يصاب فى حادثة ، وارتفعت ستائر الكراهية تحجب عنى ضوء الشمس ، وتكاثرت سحب الغضب بعد أن أشاح السائق السابع بوجهه عنى ، كل تلك السيارات كانت وقوفا ، لم تتحرك السيارات ، وكذلك أنا ، رحت أدور حول نفسى ، قررت أن أبتسم ، أن أتذكر شيئا مفرحا ، تذكرت أن اليوم هو اليوم الرابع من الشهر وأن جيبى لا يحتوى إلا على ثلاثة جنيهات ، وتذكرت أيضا وجه زوجتى إنها حزينة دائما ، عندما أعود إلى المنزل سوف أنفق معها على الطلاق ، وتذكرت ابنتى ، عدلت عن فكرة الطلاق وفكرت فى الاستدانة ، وكذلك فكرت فى السرقة ، عندما اندفعت السيارات فى عجلة صدمنى الفانوس الزجاجى لإحداها ، سبنى السائق ومضى ، عندما أصبح بعيداً عنى رددت عليه السباب بأقذع منه ، وقلت فى سرى أنه سيصاب بمصيبة لأنه ظلمنى ، الظالم فى النار ، والمظلوم فى الجنة ، بدأت أنظر حولى ، إعلانات السينما تتحدث عن الحب ، وصور ممثلة يكاد

يكون صدرها عاريا ، وتذكرت أمرا غاية فى الاهمية ، تذكرت البحث الذى يجب أن أقدمه ، قالوا لى سوف تأخذ عنه مكافأة شعرت بهبوط فى قلبى ، لو أننى كتبت البحث . . ولكنى لم أفعل ، ويبدو أننى لن أفعل ، لا يهم . . يبدو أن المكافأة ليست من نصيبى حتى ولو كتبته فلن أحصل عليها ، لأنها لو كانت من نصيبى حتى ولو كتبته فلن أحصل عليها ، لأنها لو كانت من نصيبى لكنت قد كتبت البحث . إن كتابته تستغرق ساعات ، بدل من الجلوس أمام جهاز التليفزيون مثل العبيط مسلوب الإرادة ، فاغرا فاه فى زهد ، وعقله يرفض ما يقدم على الشاشة، ولكنه كالمكبل لا يستطيع فكاكا ، انتهى العرض . وانطفأ النور . وبدأت الأحلام السوداء تغزو الرأس المتعب دون عمل . الحياة تسلب منى . يأخذونها ، يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، أنتظر الايام القادمة ، الأيام القادمة أفضل ، حتما سوف تأتى أيام السعد ، حتما سوف تراها . . ولكن وهما هى الأيام القادمة تصبح أياما ماضية ، والأيام مثل حبل طويل أسود يمتد . يمتد ، ولا جديد ، ولا وعدا بجديد ، إنما كوارث سود . عنقود من الحنظل أمتصه كرها وقهراً . أتمدد فوق الفراش . أشعر بالضيق . أتململ . أتمنى وأحلم عمداً ، تعصى على الأحلام البيض والزرق . تختفى الأحلام الحمراء لا يبقى إلى الحلم الأسود . أصحو والجسد محطم . أندلق إلى الشارع . لا أجد مكانا فى الأوتوبيس . ولا أجد مكانا أسير عليه . أشكو لأناس يشكون . الكل يشكو . أين الحل . الحل الموت . والموت أكيد . لكن ماذا أفعل حتى يأتى الموت ، ماذا أفعل حتى يأتى الموت ؟ ! .

ورق أنا أتطاير ، أعلو فوق الأشجار ، أتماوج ، تدفعنى رياح الإعصار ، أصطدم . أسقط ، أهوى ، أرتطم ببحر من نار ، أعوى دون صوت ، يتراقص لهب النيران ، وفتيات بيض ، يرقصن ، وتهتز نهود وسيقان ، وبريق يلمع فوق الأجساد ، وأزيز حلى ، أساور مثل الأصفاد ، تتمايل ضفائر سود ، ينفرد الشعر ، تبدو الأسنان وحشى يأكل لحم الإنسان ، وزراع مقطوعة وسيقان مقصوصة ، يقترب الوحش ترتعش الأهداب أقفز فى النار ، تلسعنى لهيب الجمارات ، كل شىء هالك إلا وجهك ، سبحانك ، أنت الغوث ، أنت أنت الغوث الوهاب ، أنقذنى ، ينساب الماء البارد فوق الرأس ، وجريت ، عبر الشارع أحسست بفرح السكران ، والبيت أمامى ودخلت ، أصعد درجاً تلو درج ، علوت . علوت . حتى أتيت السفح ورأيت جبلا ممتدا ، اندفعت . وشعرت بهواء بارد فى قلبى . والخوف يدق . وصرخت . الأرض بعيدة واليد ممدودة لا تمسك إلا هواء ، والويل لكل نمام . يرمى بسهام مسمومة . الويل لكل الكذابين الغشاشين . الخادعين ، وذوى الأجسام النجسة . الويل لكل الهمازين . الويل لكل ألوان السخرة . الويل للإنسان . يولد و يموت مهان . أصرخ ، يعوى الصوت فى جوفى ، آه يا خوفى . ماذا أخشى بعد الموت . بل ماذا أخشى بعد الله . فلتكن إرادتك نافذة . وليكن حـــكمك هو السلطان .

يا غوث الغوث ، يا ملك . يا جبار ، يا قاهر . يا الله . . وانحط الجسد ، انهد ، يلسعني حديد بارد . اخترق الجرف ، وقطار قادم قادم ، ينقض ، لا مفر ، انقض ، ارتطم ، زجاج بارد باليد ، عيون مفتوحة ترمقني . فنفذت عبر الأسلاك ، ودخلت حقل الألغام ، ورأيت اللغم يفط تعلو رأسه . تهتز الرأس تتنفس . أعرف معنى الألغام . أدرك خطر الأوهام . ولكنني مقيد لا فكاك من الميزان . لا مفر . انفجر اللغم . بركان أحمر . شلالات من دم . حديد مصهور . ودخان وبخور . ورجل وطرطور . وضحكات تأتي عبر الحجرات . والجو موحي بالأسرار . أنا في بيت السلطان . أتماسك . أكتم صوتي . لن أتكلم . لن أبوح بشيء من الأسرار ، لكن .. تدفعني يد رجل جبار ، يدفعني ، أرى أنشوطة الحبل ، يندفع رأسي ، تضيق الأنشوطة شعيرات متمردة من الحبل ، تنغرس في لحم الرقبة ، تضيق الأنشوطة ، اختنق أختنق ، اليوم الأسود ملعون ، يا قوة خلق الله ، روحي مسجون ، الفكر ظنون ، الهم في القلب مدفون ، وأنا يائس ، أختنق أختنق .. يا قوة خلق الله ، ياغوث الغوث ، يا قيوم ، أمدني برحمتك ، أشملني ، أدركني ، يا خالق الحب ، يا حبيبي ، يا صاحب الزمان والمكان والإنسان ، يا صاحب الجن والحيوان . يا ملك . أدركني . ارحمني . أغثني . سامحني . أنا عبدك الإنسان ساعدني حتى أعبر خط النار . وأصير دخان وأذوب في العطر القادم منك . وأتوه داخل سلطانك . أتمدد قربانا . أطلب القرب من نور جلالك . يا نور الله . يا غوث الغوث . أصرخ طالبا

الرحمة . يا غوث موجوداً أبديا . يا رحمة ممدودة دوما .. الرحمة طوفان . الرحمة بركان . الرحمة خلقت إنسان . أتحرر . أنطلق من أسار الهوى . والطمع والجشع . من قيود إنسان هذا الزمان . الرحمة أبداً ليست هذيان . إن كان همك مثل همى . وإن كان ذنبك مثل ذنبى . فاغسل جسدك فى النار . طهر عقلك بالنار . وانفض عن نفسك طمع الدنيا . دع الإبن والمال والبلدان . وتذكر أنك تراب . والنار عذاب . فإن كنت من صلب لا يصدأ . وإن كنت من رخام لا يحترق فأنت وشأنك . لا تخف من شيء . وأى شيء . ولكن دعنى وحدى فأنا من ورق الأشجار الجاف . أتساقط مع هب الريح . أتدثر مع الإعصار . أتشبث بقوة خلق الله . . بقوة خلق الله . وأطلب غوث الله .

.. وقرأت الورقة . ومن يومها وأنا أبحث عن كاتبها . . ماذا فعل ؟ .. وإلى أين سار ؟ .. حتى انفجرت الماسورة ورأيته واقفا هناك ..

الفهـــرس

الموضـــوع	الصف.
١ ـ الرحـــلة	٣
٢ ـ عبس وتـــولى	١٥
٣ ـ عندما حضـــر	٢٧
٤ ـ عيون الأصدقاء	٣٣
٥ ـ حروف الكلمات	٤٣
٦ ـ البـــدائل	٥
٧ ـ المـــوت يأساً	٧
٨ ـ يا غوث الغـــوث	

رقم الإيداع ٥٧٦٩ / ٨٢
الرقيم الدولى ٤٢ ٩٧٧/١٠

دار الفكر ٥٨ ش ٢٦ يوليو ت : ٧٧٢٨٢١